القدس نبض العظماء وترويدة الفقراء

في هذا الجزء من الدراسة نستلهم المكانة الأدبية للقدس الحبيبة من خلال استحضار الأشعار العربية القديمة والحديثة التي نظمها أصحابها في القدس ولأجل القدس، وتدعو إلى تمجيدها والدفاع عنها، أو تتغنى بقيمتها ومكانتها في قلوب العرب والمسلمين وكان للِّقاءات الخاصة والتوثيقية حيزاً لا بأس به خصت بها هذه الدراسة.

نبدأ هنا بِقصيدة:

يا قدس معذرة

أحمد مطر

يا قدسُ معذرةً ومثلي ليس يعتذرُ

ما لي يدٌ في ما جرى فالأمرُ ما أمروا

وأنا ضعيفٌ ليس لي أثر

عارٌ عليَّ السمعُ والبصرُ

وأنا بسيف الحرف أنتحر

وأنا اللّهيبُ.. وقادتي المطر

فمتى سأستعر؟!

* * *

لو أن أرباب الحمى حجر

لحملتُ فأساً دونها القدر

هَوجاء لا تبقي ولا تذر

لكنما.. أصنامنا بشر

الغدر منهم خائف حذر

والمكر يشكو الضعف إن مكروا

فالحرب أغنية يجن بلحنها الوتر

والسلم مختصر

ساق على ساق وأقداحٌ يُعرِّشُ فوقها الخدر

وموائدٌ من حولها بقر

.. ويكونُ مؤتمر

* * *

obeikandl.com

هزي إليك بجذع مؤتمر

يساقط حولك الهذر

عاش اللهيب

.. ويسقط المطر !

*** * ***

يا قدس يا سيدتي.. معذرة

فليس لي يدان

وليس لي أسلحة

وليس لي ميدان

كل الذي أملكه لسان

والنطق يا سيدتي أسعاره باهظة

والموت بالمجان!

إلى أخر نصه، والواضح في هذه المقطوعات بأن الشاعر يشكو استكانة الحكام في ظل هبَّة شعبية عارمة تود لو تستعر لهيبا في وجه الطغاة فهو اليوم يقدم اعتذاره للقدس

obeikandl.com

الحبيبة حين لا يملك لها سوى القول والكلمة الهادفة والعبارة الواعية الراصدة لحركة الركود والخنوع في ميادين القيادة ويكرر اعتذاره للقدس شارحا حاله وحالها..

يبدأ الشاعر العراقي أحمد مطر بكائيته بتقديم الاعتذار من المدينة المقدسة ، مؤكدا أنه من الشخصيات التي لا تعتذر ولم تعود نفسها على الاعتذار، وكأنه يعزي القدس في مصابها الجلل، فمن المعروف عن أحمد مطر أنه من الشعراء الذين لا يهابون انتقاد السلطات والحكام والحكومات، فالشاعر يقدم اعتذاره للقدس كنوع جديد من الإشارة إلى التخاذل العربي، أو كانتقاد لاذع للحكام العرب، الذين شغلوا وانشغلوا بشراء الأسلحة من الولايات المتحدة الأمريكية، ومن غيرها من الدول المصدرة للسلاح؛ من أجل التباهي والتفاخر، وهناك إشارة خفية إلى تبرئة الشعوب من التخاذل عن نصرة القدس، فالشعوب العربية سلبت الإرادة، فهي لا تمتلك غير الحرف سلاحا، هذا الحرف الذي غدا سلاحا فتاكا على أعناق من يتحدثوا به.

ثم يشبه الشاعر الحكام والقادة العرب بالمطر الذي يطفئ نار الثورة لنصرة القدس، فلا تستطيع الشعوب أن تثور ثورة قوية إلا بالتخلص من هذا الحاكم الظالم لنفسه ولشعبه، لتكون القدس هي الضحية، فيتساءل الشاعر متى سيستعر، وتشتد حرارة الثورة، ويصبح مطر الحكام عاجزا عن إخماد هذه النار المستعرة؟

يا قدس معذرة

يا قدسُ معذرةً ومثلي ليس يعتذرُ

ما لي يدٌ في ما جرى فالأمرُ ما أمروا

وأنا ضعيفٌ ليس لي أثر

عارٌ عليَّ السمعُ والبصرُ

وأنا بسيف الحرف أنتحر

وأنا اللّهيبُ .. وقادتي المطر

فمتى سأستعر؟!

ويبدأ الشاعر المقطع الثاني من القصيدة بأداة الشرط غير الجازمة (لو) التي أطلق عليها علماء اللغة اسم (أداة امتناع لامتناع) ففي استخدامه لهذه الأداة دلالة رمزية قوية على فساد الأنظمة العربية وتخاذلها، التي وصفها بالحجارة، بل أدنى من الحجارة منزلة، فالحجارة قد تشعر وتستشعر عظم المصيبة في القدس، من سياسة تهويد المدينة، والأخطار التي تهدد المسجد الأقصى بالانهيار جراء الحفر المتواصل تحته، وتدنيس المسجد المبارك على أيدي المستوطنين، لكن الحكام العرب والقادة العرب لا يحركون ساكناً.

لو أن أرباب الحمى حجر

لحملتُ فأساً دونها القدر

هَوجاء لا تبقي ولا تذر

ولا يتوقف أحمد مطر عند هذا الحد، بل يواصل في وصفه وانتقاده للحكام العرب، فوصفهم بالأصنام، لكن هذه الأصنام أشد ضررا من الأصنام الحجرية، فالأصنام الحجرية لا تضر ولا تنفع، أما الأصنام البشرية، التي نسب الحكام العرب إليها، فهي لا

تنفع، لكن هناك أمراً ثانٍ هو أنها شديدة الضرر فهي أشد غدرا من الغدر نفسه حتى أن الغدر أصبح خائفا من غدرها به.

لكنما .. أصنامنا بشر

الغدر منهم خائف حذر

والمكر يشكو الضعف إن مكروا

فالحرب أغنية يجن بلحنها الوتر

كما يستهجن أحمد مطر كثرة المؤتمرات والقمم العربية، التي شهدنا أعداد غير قليلة منها، لكنها لم تجلب للقدس نفعا،فهي ليس سوى دعوات لتناول الأطعمة، والتفاخر بالعباءات، فهم بهذه الصفة ليس إلا كالأنعام، تتجمع على الأطعمة، أما ما يتم تقريره في هذه المؤتمرات، فهو ليس سوى شجب واستنكار، وحتى الشجب الاستنكار أصبح نادرا، أو معدوما في الحملات التهويدية الأخيرة على المدينة المقدسة .

والسلم مختصر

ساق على ساق

وأقداحٌ يُعرِّشُ فوقها الخدر

وموائدٌ من حولها بقر

.. ويكونُ مؤتمر

وقد اقتبس الشاعر أحمد مطر قصة سيدتنا مريم العذراء، التي أنجبت نبي الله عيسى عليه السلام بعيدا عن أعين أهلها؛ كي لا يعاتبها به قومها، فخاطبها من تحتها بعبارة هزي إليك بجذع النخلة، كي تغذي جسمها الذي أصبح بحاجة للغذاء، بعد عملية الولادة، وما فيها من إجهاد للأم، فيخاطب الشاعر أحمد مطر القدس، بعبارة "هزي اليك بجذع مؤتمر" لكن هذا المؤتمر لا يساقط شيئا نافعا، فلا يساقط إلا كثرة الكلام بلا معنى أو فائدة، أو جدوى .

هزي إليك بجذع مؤتمر

يسا قط حولك الهذرعاش اللهيب

.. ويسقط المطر !

ويختم الشاعر هذه المقطوعة الشعرية بتكرار الاعتذار من المدينة المقدسة، ويكرر عجزه الشديد، فهو أمسى مبتور الأيدي، مجردا من السلاح، فالجيش المدرب والمجهز بأعتى الأسلحة، وأقوى التدريبات، لم يعد للدفاع عن المقدسات، فهو فقط من أجل حراسة الشخصيات، وفرض الخنوع والذل على الشعوب، فالشعب لا يملك سوى لسان ينطق به، وغدا محاسبا على كل كلمة ينطق بها، فالحكومات تضطهد كل من ينطق حرفا واحدا، يحمل معنىً وطنياً أو انتماءً دينيا، والعقوبة لذلك مجهزة ومعدة ومحكوم سلفا بالموت .

يا قدس يا سيدتي .. معذرة

فليس لي يدان

وليس لي أسلحة

وليس لي ميدان

كل الذي أملكه لسان

والنطق يا سيدتي أسعاره باهظة

والموت بالمجان !

* * *

في القدس مرة أخرى

محمود درويش

في القدس، أعني داخل السور القديم،

أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى

تصوبني. فإن الأنبياء هناك يقتسمون

تاريخ القدس... يصعدون إلى السماء

ويرجعون أقل إحباطاً وحزناً، فالمحبة

والسلام مقدسان وقادمان إلى المدينة.

obeikandl.com

كنت أمشي فوق منحدر وأهجس كيف

يختلف الرواة على كلام الضوء في حجر؟

أمن حجر شحيح الضوء تندلع الحروب؟

أسير في نومي. أحملق في منامي. لا

أرى أحداً ورائي . لا أرى أحداً أمامي.

كل هذا الضوء لي. أمشي. أخف. أطير

ثم أصير غيري في التجلي. تنبت

الكلمات كالأعشاب من فم أشعيا

النبوي: "إن لم تؤمنوا لن تأمّنوا."

أمشي كأني واحد غيري. وجرحي وردة

بيضاء إنجيلية. ويداي مثل حمامتين

على الصليب تحلقان وتحملان الأرض.

لا أمشي، أطير، أصير غيري في

التجلي. لا مكان ولا زمان . فمن أنا؟

obeikandl.com

أنا لا أنا في حضرة المعراج. لكني

أفكر: وحده النبي محمد

يتكلم العربية الفصحى. "وماذا بعد؟

وماذا بعد؟ صاحت فجأة جندية:

هو أنت ثانية؟ ألم أقتلك؟

قلت: قتلتني... ونسيت، مثلك، أن أموت.

(مجلة جامعة الأقصى، سلسلة العلوم الإنسانية، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، ص 1-36، يناير 2010.)

وفي هذه المقطوعات يتبين لنا بأن الشاعر ينكر وجود غير أصحاب الهوية والحق في المدينة المقدسة فالنور هو الحق المتجلي في المدينة، ويتساءل درويش عن سبب الحرب على القدس والاختلاف والنور فيها واضح بأنها لأهلها و ليس لأحد له الحق فيها ولا حق للغرباء فيها، ويؤكد درويش بأن القدس هي أم الأديان السماوية الثلاثة، ويرسل شاعرنا أمنية وباقة أمل في الوجود بأن السلام والمحبة يسودان المدينة الطاهرة.

في القدس أنبياء الله يتفقون على أنها مهد الديانات السماوية الثلاث، ويظهر لنا بأن الشاعر في مرحلة تجلٍ مع الذات الإلهية، فيقر بأن القدس مدينة السلام والمحبة، ويبشر المدينة المقدسة، بأن السلام إليها قادم، رغم الظلام الذي يحجبه عنها، ويتساءل الشاعر كيف يكون الحجر سبب الحرب، رغم الألم الذي يصاحب الشاعر لأنه ما زال يدعو للسلام، فإنه على يقين بأن حجر في يد طفل سينتصر بإرادة شعب فلسطين على مدافع العدو الجبارة .

obeikandl.com

في القدس، أعني داخل السور القديم،

أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى

تصوبني. فإن الأنبياء هناك يقتسمون

تاريخ القدس... يصعدون إلى السماء

ويرجعون أقل إحباطاً وحزناً، فالمحبة

والسلام مقدسان وقادمان إلى المدينة.

يبحث الشاعر عن أصحاب النخوة والعزة، الذين أخذوا على عاتقهم حماية القدس، والذود عنها، إلا أنه لا يجد من يسبقه ولا من يبعه، فهو يسير وحيدا، يبحث عن حلم الحياة، وكأن اللاجئين رضوا بالخنوع والعيش تحت رحمة الأمم المتحدة، راضين بكرت المؤن، حتى في منامه لا يجد من يحلم معه بالعودة، فيتساءل إن كانت الحجارة التي استخدمها الفلسطينيون في الثورة والانتفاضة على المحتل تجدي نفعا؟

كنت أمشي فوق منحدر وأهجس كيف

يختلف الرواة على كلام الضوء في حجر؟

أمن حجر شحيح الضوء تندلع الحروب؟

أسير في نومي. أحملق في منامي. لا

أرى أحداً ورائي. لا أرى أحداً أمامي.

ذكر الشاعر عبارة "كل الضوء لي" والضوء يرمز إلى الأمل والارتياح النفسي، وكأن الشاعر يشبه أمل العودة بضوء الهداية، عندما يتذكر الشاعر العودة، تتجلى لديه أحاسيس عشق الأرض، فيسافر في رحلة التجلي إلى أرض الوطن، فيجد نفسه شخصا آخرا، حتى يصبح زهرة فواحة في أرض المسيح، أو حمامة سلام تحلق عاليا في سماء الأقصى والقيامة.

كل هذا الضوء لي. أمشي. أخف. أطير

ثم أصير غيري في التجلي. تنبت

الكلمات كالأعشاب من فم أشعيا

النبوي: "إن لم تؤمنوا لن تأمَنوا"

أمشي كأني واحد غيري. وجرحي وردة

بيضاء إنجيلية. ويداي مثل حمامتين

على الصليب تحلقان وتحملان الأرض.

لا أمشي، أطير، أصير غيري في

الشاعر يخرج عن طوره في هذا المقطع، حتى يصدق نفسه أنه إنسان آخر، حتى أنه صار يسأل عن نفسه من وماذا سيكون، فيتوصل بأنه الرجل العربي الفلسطيني الذي يتسم بالجرأة والشجاعة وحب الأرض.

التجلي. لا مكان ولا زمان . فمن أنا؟

obeikandi.com

أنا لا أنا في حضرة المعراج. لكني

أفكر: وحده النبي محمد

يتكلم العربية الفصحى. "وماذا بعد؟"

وماذا بعد؟ صاحت فجأة جندية:

هو أنت ثانية؟ ألم أقتلك؟

قلت: قتلتني... ونسيت، مثلك، أن أموت.

***

في قصيدته "يا قدس يا حبيبة السماء" يخاطب الشاعر محمود حسن إسماعيل المدينة المقدسة قائلا لها: قومي للمآذن وارفعي الأذان، قومي للكنائس وأيقظي الأجراس، ولا تتوقفي عن نداء الحياة، فالحياة فيك تنبض مهما فعل أبناء الشيطان، وتحدثي عن صمودك الجلل، واتركيه يعلوا في السماء، يلامس النجوم، ومهما اشتد الظلام فلا بد من فجر يعقبه فغدا سيبزغ نور السلام، ويعود إليك أبنائك وتعود إليك الطيور، تهتف للحب والصفاء، ولا تيأسي.

يا قدس يا حبيبة السماء

قومي إلى الصلاة

وباركي الحياة

ورددي التسبيح في المآذن

وأيقظي الأجراس في الكنائس

يطلب الشاعر من القدس أن تظل صامدة مهما تعرضت للظلم والعدوان، فإن كان أهلها (العرب والمسلمون) في سباتهم يعمهون، فعليها أن تطلب الخلاص من رب العالمين، وعلى الفلسطينيين أن يجدوا ويعدوا العدة لتحرير مدينة السلام؛ ليعمّ الأمن والسلام على أرض السلام والمحبة.

لا توقفي الدعاء للرحمن

مهما لقيت من أذى الشيطان

ردي عليه إثمه وقومي

وواصلي الحديث للنجوم

عن بأسك الصامد من قديم

في وجه كل غادر أثيم

وفجّري من حالك الظلام

نوراً يرد عزة الأيام

فلم تزل فيك خطى الإسراء

obeikandl.com

سابحة في الطهر والضياء

يعيد الشاعر الأمل للقدس، فالليل مهما طال، لا بد من فجر مشرق يبعث الضياء، والصفاء؛ ليحتضن القدس، الفجر قادم لا محالة، وتعود الحمائم على قباب المساجد والكنائس، تشدوا لحن التحرر والاستقلال.

قومي ومهما اشتدت الجراح

فكل ليل بعده صباح

غداً يهل الفجر للأعقاب

وترجع الطيور للقباب

شادية بالحب والصفاء

هاتفة بأقدس النداء

قومي إلى الصلاة والدعاء

يا قدس يا حبيبة السماء

وهنا يناجي الشاعر مدينة القدس بأن تتحدى العدى وأن تصبر فالقادم لها أجمل ويدعوها بأن تبارك الحياة فهي مدينة مقدسة بحق الأنبياء والرسل وأن ترفع الأذان في مساجدها وأن يعلو صوت أجراسها في كنائسها فبهذه الصورة يرى بأن صوت المسجد وصوت الكنيسة يناضلان من أجل البقاء في القدس ويدعوها بأن ترفع هامتها عالياً

obeikandl.com

ومهما اشتد الظلام فلا بد من فجر قادم والليل البهيم لا بد له من إشراقة صباح تبدد عتمته.

***

على بعدِ إصبعتين وأدنى من القدس للشاعر الفلسطيني سليمان دغش الذي خص الدراسة بها خلال لقاء مع الباحثة اجري في 15/ 8/ 2013.

يترقب الشاعر ضوء الفجر والتحرر، الذي طال انتظاره، فيظل الأمل بتحرير القدس في عينيه ماثلا، وإن كان هذا الضوء خافتا بفعل التقاعس العربي المقيت، فينتظر البرق، وهو مؤشر لنزول الغيث، فهو ينتظر إشارة العرب بتوحيد الصفوف لتحرير الأرض المقدسة، إلا أن هذه الإشارة لا تزال بعيدة، لكنها حتما ستظهر .

كفراشةٍ تَعِبَتْ منَ الضوءِ البعيدِ وأتعَبتني

كانَ قلبي يَرصُدُ النّجماتِ في الرؤيا

على بوّابةِ التأويلِ بينَ غمامتينِ

على جناحِ الرّيحِ

لا بَرقٌ يُبشِّرُنا بما تُخفي مرايا الليلِ في الأبراجِ

سواد الليل دلالة على بقاء القدس تحت الاستعمار، فالشاعر يرى أن الحياة فقدت طعمها ولونها، فهي تئن من طول انتظار الأمطار التي تغسل وجه المدينة من دنس الصهيوني، الذي يحكم القبضة على المدينة، دوما نغني "عائدون عائدون" وبقينا في المنافي،

وظلت القدس تحت الاستعمار تئن، تنتظر عودة اللاجئ والنازح، وهي تبكي الدم على فراقهم، تنظر بصيص الأمل من نور العودة .

كانَ الليلُ أسودَ

والحياةُ تئنُّ منْ عَطَشِ الحياةِ إلى الحياةِ

فلا حياةَ هُنا لمنْ تَركوا الحياةَ

على مرايا الحُلْمِ والذكرى

وقالوا :عائدونَ فعادت الذكرى وما عادوا

وظلّ الحُلْم منفياً كنجمٍ خارجٍ

عنْ عِلَّةِ التّنجيمِ

لا أحدٌ يراهُ ولا تُفسّرُهُ الرؤى

لا زرّ يلمَعُ في قميصِ الليلِ

لا زال الشاعر يحمل النظرة التشاؤمية، فالليل، والغراب، والخطيئة، كل هذه تدلل على عظم مصاب القدس، وطول انتظار الفرج، لكنها لم ولن تفقد الأمل ما دام الأحرار من أهل فلسطين ينادون بالحرية والتحرر وتحرير القدس.

جاءَ الليلُ في وَضَحِ الخطيئةِ كالغرابِ

وكنتُ وحدي كالفراشةِ تقتفي أثَرَ الحديقةِ

obeikandl.com

خلفَ خيطِ الضوءِ يرسمُ كرنفالَ الشمسِ

فوقَ ذرى الجليلِ

يتحول الشاعر إلى مناجاة الأساطير، كي يشفي غليله، فالحقائق كلها متشابهة، ألم وألم ثم آلام، فيتكئ على الأسطورة هروبا من الواقع المقيت، فيصور البحر بيتا له شباك، وأنه يقف على هذا الشباك يناجي طيور فلسطين بأن تعود إلى أرضها كي تعود الحياة إلى المدينة المقدسة.

رأيتُ نفسي ملءَ نرجسها

اتكأتُ على ضفائر شهرزادَ لعلَّ تكتَملُ الحكايةُ

مثلما تهوى الأميرةُ

كانَ ظلُّ السّندبادِ منارةً للرّوحِ،

بوصلةَ الفؤادِ إلى البلادِ

وكنتُ وحدي

حارساً شُبّاكَ هذا البحر

أومئُ للنوارسِ أن تعودَ

ولا حدودَ لرؤيتي

obeikandl.com

يتجه الشاعر في قصيدته إلى ذكرى مؤلمة لأهل فلسطين وللعروبة جمعاء، إنها اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت فيها الدول الاستعمارية البلاد العربية فيما بينها، ومنها فلسطين التي كانت من حصة بريطانيا، لتتلاعب فيها كيف تشاء، وتفي بوعدها لليهود الذي قطع على لسان وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور.

وقصيدتي زرقاءُ مثل سماءِ عينيها

على شُرُفاتِ روحي

منْ ترى رسَمَ الحدودَ على خريطتنا

وسلَّمَ للخرافةِ شهوةَ الجغرافِيا

ينوه الشاعر إلى أن الله سبحانه، خلق الأرض وجعلها لعمارة بني آدم، وأنها تتسع لجميع الخلق، إلا أن اليهود مصرون على الاعتداء على حق غيرهم في هذه الأرض.

الأرضُ واسعةٌ بما يكفي سلالةَ آدم البشريِّ

لكنَّ الخرافةَ تشتهي جَسدي المُقدَّسَ

يا إلهي

كم يُعذّبنا المُقدَّسُ حينَ نستهوي الخطيئةَ

كمْ تُعَذّبنا الخطيئةُ حينَ يسكُننا المقدّسُ

يا الهي حالةُ الما بين بين رهينةٌ بالشَّكِ

إنَّ الشَّكَ مبتدأُ الحقيقةِ

واكتمالُ الرّمزِ في المعنى المقدّسِ

القدس لا تبعد كثيرا عن الفلسطينيين لكنها بعيده جدا جدا، فالمسافة وحدها ليست مقياسا للبعد، فالجائع لا يستفيد من كثرة الطعام بجواره وهو مكبل ومقيد لا يستطيع الوصول إليه، وها هو الأقصى قريب جدا، لكن لا نتمكن من الوصول إليه، ونكتفي بالنظر عن بعد، ونحضر في كل يوم سبت كي ننظر الأقصى ولو عن بعد .

ها أنا وحدي هُنا

بيني وبينَ القُدسِ إصبَعَتَيْنِ أو أدنى قليلاً

في يدي مفتاحُ عاصمةِ السّماءِ

ترى هل انتبهَ المسيحُ إلى الوشايةِ يا يهودا

فاستحالَ عشاءهُ السّريُّ قدّاسَ الصليبِ

إلى القيامةِ

المبدأ العربي الأصيل يظل ماثلا في أهل فلسطين، العربي لا يبيع صاحبه، ويكتسب من هذا المبدأ التعامل السمح بين الأديان، فعيسى المسيح، وسيدنا محمد، وموسى كلهم عند الله أنبياء، وكل الديانات السماوية جاءت برسالة التوحيد، ويعود الأمل بالوحدة عندما يقول الشاعر أن لا أحد يستطيع أن يمنع ارتباطنا بأرضنا.

كمْ صليباً ظلَّ بعدَكَ يا يسوعُ الناصريّ هنا

لأحملهُ على كتِفَيَّ وعداً بالخلاصِ

رأيتُ نفسي ملءَ نرجسها وهاجسها

اتكأتُ على بشارةِ مريم العذراءِ،

ويحَكَ يا يَسوعُ ألمْ تُخَلِّصني؟

بلا لكنّهم عادوا إليكَ ليصلبوني منْ جديد

لا حياة صارت لمن تركوا الحياة وذهبوا وصارت فلسطين ذكرى وصار الحلم الفلسطيني بالعودة معلقا على رفوف الأمل، ويشير الشاعر دغش إلى دخول الأعداء الذين هم كالغربان إلى الوطن و يتساءل لماذا ضاقت أعينهم على فلسطين بالتحديد ويؤكد بأن رغم الحزن ورغم الألم إلا أنه ما زال حارسا لمدينته وما زال متمسكا ببقية أمل وذكرى وقد استحضر الشاعر صلب يسوع المسيح استعارة لشعبنا الفلسطيني الذي ما زال يصلب على يد من صلبوا المسيح الشهيد الفلسطيني الأول.

***

قصيدة سمو الشيخ صقر بن سلطان القاسمي "مبدؤنا في الحق صامد"، وثقت من خلال اتصال مباشر للشيخة الشاعرة هند القاسمي تلته للمغفور له في 25/ 7/ 2013.

ثلاثُ مئتين بعد ألفٍ تصرمتْ وخالدُ فيها إن دعا الحرب خالد

فلا الشرق ينسى في الشآمِ فِعالَه ولا وقعةَ اليرموك والخصمُ شاهد

أجبني مُذيق الخصم في كل وقعةٍ يدَ الذلِ إن ناديتُ باسمك خالد

رهينَ البِلى قَمْ وانْفضِ التُّربَ إننا بأرواحنا جُدْنا فهل أنت قائد

فلو شاهدت عيناكَ في القدس خصمنا وفي دير ياسين تروعُ المشَاهَد

وتُهتك أحزامٌ ويُزهق آمن تُقسم أوطانُ. تُهد مساجدُ

فكم من شريدٍ ظل من غير ملجئ يقضّي الليالي وهو بالذل ساهد

وفاتنةُ الألحاظِ صانَ جمالَها عفافٌ وإيمانٌ بها ومحامد

كريمةُ أحسابٍ رفيعةُ محتدٍ وأطهرُ من قد زينتها القلائد

تساقُ برغمِ الأنفِ والوجهُ حاسرٌ ومَدْمَعُها في الخدِ جارٍ وجامد

وَرَبّ ثمانين يُساق مصفدا وما كان إلا عن حِماه يُجاهد

أجابَ نداء الحر لما دعا به فثار كما ثار الغَضوبُ يُجالد

ففي ذمِة الرحمن من خرَّ ثاوياً تُحييك في دار النعيم الولائد

كذا فليذدْ عن ملكِهِ طالبُ العلى ويَرضَ بذلِ العيشِ من هو خامد

فلسطينُ يا قومي هلموا فإنها لكم، ويمين اللهّ، قلبٌ وساعد

فَردّوا كما قد ردَّ عَمرو فخارَها فما الموتُ إلا، لو تعدد، واحد

وقولوا لها في كل واد ومجمع بأرواحنا نفديكِ واللهّ شاهد

فلسطينُ يا فخرَ العروبةِ هوّني عليك، وإن كرت عليك أساود

فلا شِبرُ ما لم يجرِ فيه لنا دمٌ ولا بقعةٌ إلا بها نام ماجد

لئن فَرقَتْنا قبلُ أيدٍ أثيمةٌ فمبدؤنا في قبضةِ الحقِ صامد

ثقي ببنيك الصِيدِ والله ناصرٌ وعزُكِ مرفوعٌ وخصُمكِ حاقد

فقد عَلِم التاريخُ أنَّا بُناته وأنا له كهف نَقيه وساعد

وأنا أباة الضيمِ في كل موقفٍ لنا بالذي يأبى السلامَ مكائد

إذا لم نعدها يا فلسطين جذعة عواناً لها في الملحمات عوائد

ونقتحم الغاراتِ والموتُ كالحُ ونستهون الأهوالَ والروعُ سائد

فلا جادنا يا فتنةَ الشرقِ صيّبٌ ولا ذادَ عنا مَاردَ الظلمِ ذائد

نلحظ أن الشاعر بدأ قصيدته بالتذكير ببطولات خالد بن الوليد في معركة اليرموك، مؤكدا على حاجة الأمة العربية لقائد مقدام من أمثال خالد بن الوليد،ذلك القائد الذي لم يهزم في معركة سواء في الجاهلية أو الإسلام؛ ليردَّ للقدس كرامتها التي سلبت على أيدي المعتدين الصهيونيين، وكأنه في هذه القصيدة يخاطب القائد خالد بن الوليد، ويطلب منه أن ينظر لحال القدس اليوم، وحال المستعمر الذي لم يترك جرما بحق المدينة إلا ارتكبه، فالمدينة تقسّم، ويحفر تحت المسجد الأقصى؛ تمهيدا لهدمه، وبناء الهيكل الذي يزعمه

الصهاينة، والبيوت تهدّم، واللاجئين بغير مأوى، وينتظرون القائد المسلم الذي سيحرر المدينة ويعيد أهلها إلى أحضانها.

ثـلاثُ مئتـين بعـد ألـفٍ تـصرمتْ وخالـدُ فيهـا إن دعـا الحـرب خالـد

فـلا الـشرق ينـسى في الـشآمِ فِعالَـه ولا وقعـةَ اليرمـوك والخـصمُ شـاهد

أجبنـي مُـذيق الخـصم في كـل وقعـةٍ يـدَ الـذلِ إن ناديـتُ باسـمك خالـد

رهـينَ الـبِلى قَـمْ وانُفـضِ الـتُّربَ إننـا بأرواحنـا جُـدْنا فهـل أنـت قائـد

فلو شاهدت عيناكَ في القدس خصمنا وفي ديـر ياسـين تـروعُ المـشَاهَد

وتُهتـك أحـزامٌ ويُزهـق آمـن تُقـسم أوطـانُ . تُهـد مـساجدُ

فكم من شريدٍ ظل من غير ملجئ يقـضّى الليـالي وهـو بالـذل سـاهد

ثم ينتقل الشاعر للحديث عن المدينة المقدسة، ومكانتها وأهميتها لكل الأطياف من مسلمين ونصارى ويهود، فهي مهبط الديانات السماوية الثلاث، وتوجد بها أهم الآثار والمقدسات لتلك الديانات، ففيها أولى القبلتين، وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين، إضافة إلى العديد من الآثار الإسلامية، وبالنسبة للنصارى فهي ذات قيمة بالغة لوجود أم الكنائس (كنيسة القيامة) وعندما يذكر الشاعر القدس الباكية، يعود مرة ثانية ليؤكد على أن خالد بن الوليد أجاب نداء القدس واستغاثتها، ونجد الشاعر يعمل على مفاضلة القدس على الفتاة الجميلة الرشيقة، صاحبة الصون والعفاف والطهارة، ذات الحسب والنسب الرفيع.

وفاتنـــةُ الألحـــاظِ صـــانَ جمالَهـــا عفـــافٌ وإيـــمانٌ بهـــا ومحامـــد

كريمـــةُ أحـــسابٍ رفيعـــةُ محتـــدٍ وأطهـــرُ مـــن قـــد زينتهـــا القلائـــد

تـساقُ بـرغمِ الأنـفِ والوجـهُ حـاسرٌ ومَـدْمَعُها في الخـدِ جـارٍ وجامـد

وَرَبِّ ثمانـــين يُـــساق مـــصفدا ومـــا كـــان إلا عـــن جِمـــاه يُجاهـــد

أجـــابَ نـــداء الحـــر لمـــا دعـــا بـــه فثـــار كـــما ثـــار الغَـــضوبُ يُجالـــد

ففـي ذمِـة الـرحمن مـن خـرَّ ثاويـاً تُحييـــك في دار النعـــيم الولائـــد

كـذا فليـذدْ عـن ملكِـهِ طالـبُ العـلى ويَـرضَ بـذلِ العيشِ مـن هـو خامـد

وفي المقطع التالي من القصيدة يتجه الشاعر إلى استنهاض الهمم، وإثارة النخوة من أجل تحرير فلسطين عامة والقدس خاصة، مؤكدا على أنها عربية أصيلة، ولا يمكن أن تكون لغير العرب، وإن طال الظلم وطال الأسر فلا بد أن تتكسر القيود، لذلك يدعو الشاعر الشعوب العربية للنهوض، وأن لا يهابوا المنية، الموت حق على كل عبد، وإن تعددت أسبابه ومسبباته، أن تموت شهيدا شريفا، خير من أن تموت متخاذلاً.

فلـسطينُ يـا قـومي هلمـوا فإنهـا لكـم، ويمـين اللهّ، قلـبٌ وسـاعد

فَـردّوا كـما قـد ردَّ عَمـرو فخارَهـا فـما المـوتُ إلا، لـو تعـدد، واحـد

وقولـوا لهـا في كـل واد ومجمـع بأرواحنـا نفـديكِ واللهّ شـاهد

فلسطينُ يا فخرَ العروبةِ هوّني عليك، وإن كرت عليك أساود

فلا شِبرُ ما لم يجرِ فيه لنا دمٌ ولا بقعةٌ إلا بها نام ماجد

لئن فَرقَتْنا قبلُ أيدٍ أثيمةٌ فمبدؤنا في قبضةِ الحقِ صامد

ثقي ببنيك الصِيدِ واللهّ ناصرٌ وعزُكِ مرفوعٌ وخصُمكِ حاقد

فقد عَلِم التاريخُ أنَّا بُناته وأنا له كهف نَقيه وساعد

وأنا أباة الضيمِ في كل موقفٍ لنا بالذي يأبى السلامَ مكائد

إذا لم نعدها يا فلسطين جذعة عواناً لها في الملحمات عوائد

ونقتحم الغاراتِ والموتُ كالحُ ونستهون الأهوالَ والروعُ سائد

فلا جادنا يا فتنةَ الشرقِ صيّبٌ ولا ذادَ عنا مَاردَ الظلمِ ذائد

فالقصيدة تحمل بين طيات حروفها عدد من الرسائل فشاعرنا يتفاخر بقادة المسلمين العظام الذين حرروا البلاد أمثال خالد وعمرو ويتساءل هل من مخلص للمدينة الحزينة من حزنها وقيدها ويتوجه بندائه إلى كافة العرب والمسلمين قائلا بأن فلسطين دولتكم وأن القدس مدينتكم فوجب الذود عنها والدفاع عن حياضها ويشيد شاعرنا بطهارة المدينة رغم تدنيسها من الأعداء.

***

الشاعر مصطفى مطر ينسج قصيدته الرائعة "منطق الطير" من خيوط الألم الفلسطيني، فنجده يبدأ قصيدته التي بين أيدينا بمرارة اللجوء والتشرد،والغربة، والبعد عن الأوطان، تلك المصيبة التي حلت بالشعب الفلسطيني إثر نكبة 1948م، وتتجدد مرة أخرى في عام 1967م، ولا زالت في كل يوم تتجدد، فلا يمر يوم إلا ويسقط شهداء وجرحى، والأسرى بالآلاف.

حلّقَ الطيرُ وحيدًا

لا أَحبّة..

فاقدًا أُنسًا وصُحبة !

شاردًا من قسوةِ الأرضِ

التي يهوى

لغربة !

كيف هذا الطيرُ

يشكو إخوةَ الأحزانِ خيبة

رعشةُ الريشِ عليهِ

عَيشةٌ واللهِ صعبة !

في سماءٍ كبّلتها

obeikandl.com

قسوةُ المحتلِّ عنوة !

في دماءٍ سفكتها

أهلُ هذي الأرضِ

قسوة جلبت للشعبِ

نكبة .. تلو نكبة !

ولم يغل الشاعر عن النكبة الكبرى وهي الانقسام الذي أصاب الصف الفلسطيني الواحد الموحد، وأثره في تعطيل حركة النضال الشعبي الفلسطيني، وتعطيل مسيرة عودة اللاجئين إلى ديارهم،فيحتسب الشاعر العودة مع الأموات بعد أن وئدت بفعل الانقسام، فيأمر بتكفينها ودفنها .

يا ضياعًا يسرقُ

الأحلامَ يُدمي ألفَ وردة

في قتامٍ ينشرُ الآلامَ

والمقتولُ عَودة

كفّنوها لا تصلّوا

وادفنوها ثمّ وَلّوا

ثمّ قولوا إنّنا نسعى لِوحدة !

يعتبر الشاعر تحرير القدس من أيدي الطغاة دين في أعناق الفلسطينيين، ويسأل عن أهل المروءة، الذين يصونون العهد، ليتحركوا، ويثوروا ويهبوا هبة رجل واحد؛ من أجل نصرة القدس؛ ليصبح حلم تحرير القدس حقيقة، فيسيطر الأمر على الشاعر فعودته للقدس غدت قريبة.

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

يسرد الشاعر مأساة الشعب الفلسطيني على لسان سيدنا سليمان والهدهد، فالهدهد يشكو لسيدنا سليمان بلفور بوعده المشؤوم، فقد سرق القدس على أعين العرب والمسلمين وباعها بأرخص الأثمان للمحتل الصهيوني عام 1917م، ومنذ ذلك الحادثة والقدس تصرخ وتستغيث بالعرب، لكنها لم تجد إلى هذا اليوم صدا لندائها وصراخها، فالرجال في بني العرب لم يعد لهم أثر في هذا الزمان .

obeikandl.com

أيها الهدهدُ ماذا

هل هو الخطبُ الأليم

قال مُرَّ القولِ هذا

يا سليمانَ الحكيمْ

منطقُ الطيرِ المُعاني

لوعةٌ فيهِ تقيمْ

رغبةٌ في نزعِ حقٍّ

غَلَّه باغٍ أثيمْ

سرق القدسَ جهارًا

صرخت تشكو طويلًا

لم تجد في العربِ

شهمًا يطردُ الخصمَ الغريم

لم تجد مثلَك واعٍ

قدرَها الحرّ الكريمْ

obeikandl.com

يرمز الشاعر بالطير إلى الوفاء، والرباط، فإن منطق الطير يلزم بالجهاد والنضال والتفاني من أجل تحرير بيت المقدس، فإن الشاعر يؤمن بأن لا سبيل لتحرير القدس إلا بالكفاح المسلح، وأن العدو لا يعرف إلا لغة الحراب، ويكرر عبارة "إن عهد القدس دين" تأكيدا على وجوب الجهاد.

منطقُ الطيرِ فَناءٌ

في سبيلِ القدسِ إيمانًا وحبًّا

ذاك حلُّ اللغزِ في الآتي

كما كان فداءُ الأرضِ

في العهدِ القديمْ

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

وفي المقطوعة التالية يسأل الشاعر عن أصحاب النخوة والعزة والكرامة من بني العرب، الذين لا يسمحون بأن يبقى تحرير القدس حلما، فيعدوا العدة للقاء عدوهم ودحره عن عتبات القدس، ليسود في القدس الأمن والأمان، ويعود اللاجئون الفلسطينيون إلى ديارهم .

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

obeikandl.com

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

يغوص الشاعر في بحر الألم عندما يستذكر أهل القدس الذين هاجروا منها على أمل العودة القريبة، لكن ليل الغربة طال، وظل النازحون واللاجئون ينتظرون حتى هذه اللحظة، ولم ينسوا ولو للحظة تلك العودة، حتى بعد موت الكثير منهم، لكنهم مصممون على العودة، فيرث الشاب عن أبيه وجده ذلك الحلم المنشود، والكل يأمل في العودة، وإن طال الانتظار .

أين حطّ الطائرُ المذبوحُ في ليلِ

الدموعِ ؟

أين كوفيةُ جدّي ؟

مات يحنو للرجوعِ

ما درَى جدّي بأنّ الليلَ

خُلدٌ في ضلوعي !

لم يرَ استحكامَ صوتِ

الزيفِ فينا

والأماني كالقطيعِ

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

يسيطر أمل العودة على الشاعر، فالطير في قصيدته يقف ناظرا للقدس، ينتظر الصباح (التحرير) فمنذ أن ولد وهو يحتسي مرارة الغربة يحلم بالعودة إلى الديار، ينتظر الساعة التي يرى فيها ساحات وباحات القدس ميدان لمعركة التحرير والتحرر، ويرى المحتل يرحل، مؤكدا على أن الجهاد للذود عن حمى القدس واجب مقدس، وأن الجهاد هو السبيل الأمثل للتحرير.

نحو أرضِ القدسِ يحنو للصباحِ

عاش يحنو لصلاحِ

عاش يسقيها جراحًا من جراحي

obeikandl.com

صوتُه صوتُ السماحِ

دمعُه كان رسولًا

للمُنى في كلّ ساحِ

صار صوتُ القدسِ

مأوىً للرماحِ

صار مثوىً للنباحِ

وأخي ضيفًا عليها

يا لعزّي المستباحِ

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

obeikandl.com

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

يخاطب الشاعر القدس ويطلب منها أن تكفكف دموعها، وأن ترتل آية الكرسي، كي يحميها الله سبحانه، فتجيبه بأنها على العهد باقية، صامدة، وأنها رغم الألم ورغم الأسر، وتخبره بأنها ملك للعرب الفلسطينيين، وأن اليهود إنما هم دخلاء عليها، ولا بد يوما للدخل أن يخرج منها صاغرا، بأيادي أبنائها المرابطين، ثم تحمّل القدس الطير رسالة إلى أبناء العروبة، ومضمون هذه الرسالة أنها أسيرة تنتظر أبناءها الأبطال؛ كي يحرروها من سجنها المقيت .

أخبريني أنتِ يا سرَّ أنيني

ما الذي أجرى بحارَ الدمعِ

نارًا في عيوني

أخبريني ..

كفكفي دمعَ الشجونِ

وضعي يدَكِ الطهورَ

فوقَ أوجاعِ جبيني

رتّلي (الكرسيَّ) أمّي

فأنا جدّ حزينِ

قالتِ اسمع يا صغيري

أنا ما مات ضميري

سل صغيري وكبيري

عن عصوري

قل لَمن عاشَ بحضني

إنّني أقضي بسجنِ

دون عيشٍ مطمئنٍّ

دونَ أحبابٍ وأمنِ

قل لهم إنّ الغريبَ

غادرٌ لا ليس مِنّي

إنّ عهدَ القدس

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

obeikandl.com

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

يؤكد الطير للقدس أنه ابنها الوفي البار، ولن يتخلى عنها مهما طال الغياب، فهو لا يقبل سواها أما له، مؤكدا لها أنه ناضل من أجلها وجاهد، وسوف يواصل نضاله وكفاحه حتى تحرير كل شبر منها .

أخبريني .. فأنا شبلُ البلادِ

منكِ عظمي أنتِ زادي

أنتِ يا قدسُ مُرادي

أخبريني عن رشادي

عن فدائي وكفاحي وزنادي

عن ندائي وسلاحي يا فؤادي

وهنا يستنطق الشاعر القدس بنداء حزين، فهي تطلب من أبنها أن يعود إليها، إلى حضنها الذي افتقده منذ سنين، ويجيبها بأنه يتمنى ذلك، لكن هذا الأمر أصبح صعبا، لا مستحيلا، بعد أن بيعت القضية الفلسطينية، وشرع للغريب بالإقامة والاستيطان فيها، فيعتبر الطير هنا أن كل خطوة في المفاوضات، تؤخر وتبعد من حل أزمة اللاجئين

والنازحين، لكن الشاعر في نهاية كل مقطع يعيد الأمل من جديد رغم كل شيء ضده، فيكرر عبارة "أيها الطيرُ قريبًا يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ" تأكيدا على أمله الدائم في العودة .

نطقت والصوتُ مجروحُ المِدادِ

يا بنيّ

أنت أغلى ما لديَّ

عُد إليَّ

كيف يا قدسُ وقد باعوا القضية

وأنا صرتُ شريدًا ما لي في أرضي هُوية

ذاك مفصولٌ وهذا في منافي الجاهلية

وأخي ينأى وأنأى

وأنا بين بَنيَّ صرتُ واللهِ الضحية

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

يسأل الطير أمه فلسطين عن العودة، متسائلا عن سرّ تأخر العودة، هل هي بسبب لعنة إلهية من جراء ذنوب الأمة العربية وبعدها عن الدين، أم أنها بسبب التخاذل العربي والتآمر على القضية الفلسطينية، فتؤكد القدس للطير بأن العودة أمر محقق، لكن لا بد لتحققه من أمرين: الرجوع إلى الدين الحنيف، والتوحد والتآزر وتكاتف الأيدي في وجه العدو، وإنها تطمح بأن تتحقق في أسرع وقت .

أخبريني

هل إليكِ سنعودُ

أم سيبقى الليلُ فينا ويسودُ

أم هي اللعنةُ تجري في مجاريها العقودُ

أم هي الأوزارُ جيشٌ والأسى فينا يقودُ

أخبريني

هل إليكِ سنعودُ

ستعودون ولكن قبلَ هذا يا صغيري

إنّ حُلمي

أن تعودوا

عن فلسطين معًا في خندقِ

الذّودِ بعزمٍ أن تذودوا

ستعودون ولكن كي تعودوا

قبضةً يا أهلُ عُودوا

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

بيقينٍ لا تمنّي ..

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

obeikandl.com

ترسل القدس نداء للطير بأن يمسح الأحزان، وأن يسعى للفرحة الكبرى، حين يحلق في سماء القدس، وهنا رسالة الشاعر تدعو إلى الوحدة والتكاتف في وجه المحتل، وتجنب الاقتتال الداخلي، فعبارة "فحرامٌ يا بنيَّ أن يموتَ الطيرُ قهرًا وبأيدي الصّحبِ يُذبح" موجهة إلى حكومتي رام الله وغزة، بأن يكفوا عن الحراب الداخلي، ويتكاتفون في صف واحد؛ لحماية القدس .

ثم قل للطيرِ يفرحْ

دمعةَ الأحزانِ يمسحْ

بعدَ طولِ الهَمِّ يمرحْ

في سماءِ القدسِ

حرٌّ طيرُنا العنقاءُ يسبحْ

فحرامٌ يا بنيَّ أن يموتَ

الطيرُ قهرًا وبأيدي الصّحبِ يُذبح

آن عهدُ الحبِّ في القدسِ

قريبًا سوف يصدحْ

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

obeikandl.com

عودة الأمل للشاعر، فأهل فلسطين سوف يجتمعون في إطار الوحدة، ويتحلقون حول عروسهم، فالفجر آت لا محالة، وتعمّ السعادة، وتبني الطيور أعشاشها في أمن وأمان، دون خوف من الأفاعي، ويرسل الشاعر هذه الرسالة كي يصحو العرب من نومهم العميق، ويفيقوا لأخطار العدو، ويوفوا بدينهم ويحرروا القدس ويعيدوا الحياة والمجد لها .

ذي فلسطينُ عروسٌ ومَلاكٌ

فوقَ عرشِكْ

فجرُ هذي الأرضِ آتٍ

شعبُنا يرجوهُ يُوشِكْ

يُحَفَظُ العشُّ بوحدة

تحفظُ الوحدةُ وردة

تجلبُ الوردةُ سعدَه

وينيرُ السعدُ وَجْدَه

هكذا العشُ سيُحمَى

وإلى القدسِ سلامًا

بعدَ شوقٍ ومودّة

obeikandl.com

نحن منها وإليها

فجرُنا يشتاقُ جندَه

صحوةٌ من بعدِ نومِ

أوجعت في القلبِ

مُدّة

إنّ عهدَ القدسِ

دينٌ !

أين من يحفظُ عهدَه

ليغنّي

ويغني ..

ويغني ..

بيقينٍ لا تمنّي

أيها الطيرُ قريبًا

يرجعُ الأمنُ لعشِّكْ

obeikandl.com

وفي هذه القصيدة التي خصها بالبحث "القدس في الشعر العربي" بعد اتصال مباشر به من قبل الباحثة حيث أصر شاعرنا على أن القدس حالة خاصة ولا توفيها حقها كل قصائد الدنيا التي تعبر عن كم هائل من مشاعر الواحد فينا نحوها.

وطالعنا الشاعر مطر الشاب الفلسطيني الذي شرب ذكريات الأرض المغتصبة حتى ارتوت عروقه من أحاديث جده وصار يكتب الذكرى قصيدة لتبقى القدس والقضية في عقول أبنائها فشاعرنا الشاب كبر على أحاديث الوطن وصار يحمل هما كبيرا وأمانة في عنقه ومن خلال قصيدته ألحظ بأن الشاعر يعاني من فراق الفلسطيني عن أخيه الفلسطيني وذلك بسبب الانقسام ويدعو من خلال حواره مع أمه (القدس) بأن تبقى صامدة مهما حصل فالفجر آت كما يقول والنصر للأم الصابرة وما زال يحمل بين طيات حديثه تلك النظرة التفاؤلية لمستقبل القضية بالرغم من أنه يشكو من تخاذل كافة العرب لا يزال الشاعر يذكرنا بأنه في غاية الشوق لأمه التي لم يرها منذ أمد بعيد ومع ذلك يقول لها سأموت من أجلك إلا أنها ترفض ذلك فالأم تأبى أن يموت ابنها لأجلها لكنه يرفض ويرى بأن القضية صارت بالمزاد وأن أغلى ما يملك سيضيع من بين يديه ولكنه يقاتل ليحفظ البقية ويريد أن يقاتل ليحفظ الهوية فهو صار لاجئا وأصبح ضحية ولكنه يختم قصيدته بمناجاته لطائر الوطن الحزين بأن العودة للديار صارت قريبة قريبة والفلسطيني صار على مرمى حجر من أرضه ووطنه.

وشاعرنا هو من الشباب الفلسطيني الثائر بكلامه وأفعاله وقد كتب قصيدته من أجل إعداد هذه الدراسة، ويبقى الأمل يا مصطفى يراودنا بالعودة .

❊ ❊ ❊

شاعر متمرس آخر من الداخل الفلسطيني، الشاعر معين شلبية وفي قصيدته هو الآخر خصنا بها من خلال اتصال مباشر به في 12/ 8/ 2013 حملت عنوان (هل يغريك الموت؟).

يخاطب الشاعر الإنسان العربي، ويسأله أن كان الخنوع والذل يسيطر عليه، يهاب الردى، ويجلس متخاذلا عن نصرة القدس، هل العرب أصبحوا قانعين بحياة اللهوّ الزائفة، أم أن لهم عهد ناصع البياض يعودون فيه إلى الجهاد والنضال من أجل تحرير عروس فلسطين، التي تداس أذيالها تحت وطأة الاحتلال .

هلْ يُغريكَ الموتُ ؟

مُتَوَّجاً كَنفحةِ طِيْبٍ

لاْ وَسْماً بهيَّاً بَعْدَكَ

هَبَطَّتَ مِنْ وَرَقِ الغَمامِ

لِتَرْسُمَ المعنَى

وَتَبعثَ مِنْ ضَبابِ يديكَ

رِسالةً أُخرَى

وَدمعاً أَبيًّا.

يخاطب الشاعر بني العرب، مستهجنا انغماسهم في ملذات الحياة، وتقاعسهم عن النضال من أجل تحرير القدس، هل يعرفون شيء عن القدس، بكل تأكيد جميعهم يعلم

obeikandl.com

بأن القدس بحاجة لنصرة ومناصرة، إلا أن شياطينهم لا يسمحون لهم بالتحرك إليها، ويبقوا في رغد العيش يسامرون شياطين الإنس والجان .

هَا أَنتَ تُؤَثِّثُ عهدَ الغيبِ

وَترحلُ فِيْ شهوتِكَ الأَبديَّة

هَا أَنتَ تحدِّقُ ثانيةً فِيَّ

وَتُحَلِّقُ فوقَ رياحِ القدسِ

هَا أَنتَ تُنَضِّبُ صَفوتكَ الوحشيَّة

وَتَشحنُ بالخيطِ اللَّيلكَ

عَلَّ اللَّيلكَ يعبرُ طقسَ الموتِ

بِدونِ خَلاص.

يعاتب الشاعر أبناء العروبة، لأنهم قصروا بل أذنبوا وأجرموا في حق القدس، بالتخاذل، متسائلا عن الطين الذي جبلوا منه، فهم نسوا إنسانيتهم، ولم يحفظوا منها إلا الغرائز، ورضوا بالحياة الزائفة التي تطل عليهم من خلف مساحيق الذل والهوان .

هَلْ يُسْعِفُكَ العشقُ؟

مِنْ أَيِّ سُيوخٍ طينيٍّ قذفتكَ العُزلةُ

حَتَى شُسوعِ العُمْر؟

obeikandl.com

مِنْ أَيِّ مجالٍ ناريٍّ دفقتكَ جِهاتُ الخَلقِ

نَحْوَ مَساحيقِ المنفَى؟

مِنْ أَيِّ مَهبٍّ مائيٍّ تَتشمَّمُ رائحةَ البحرِ

وَتدعُو للمطرِ التَّائهِ

فِيْ صفحاتِ الرَّمل؟.

هَلْ يُسعفُكَ البحرُ؟

يقرّ الشاعر بأن القدس مدينة الجمال، فيها تضح الرؤيا، ويحمل الجمال معنى، فمنذ أن مر الهواء على مفارق الروح، واكتوت بالغربة، وجه الشاعر نداء بأن يحملوا بلادهم في قلوبهم، ويهيئوا لها ما استطاعوا من سلام، ومهما ذهب المخلص الشريف للوطن، إلا أن رائحة الوطن تطفح بالأحزان، وما يزال الشاعر يتساءل هل الذل والابتعاد عن المدينة يغري إلى حد الذبول، والكل يعلم بأن الموت حق على المتخاذل والمناصر للمدينة، فالموت قميص الروح .

مِنْ أَينَ لِيْ عُرْيُ الإجابةِ حينَ يَشتعلُ السُّؤال؟

مِنْ أَينَ لِيْ رَجْعُ المرايَا حينَ يَنكسرُ القِناع؟

مِنْ أَينَ لِيْ وَقْعُ الأَغانِي حينَ يَنتفضُ النَّشيد؟

مِنْ أَينَ لِيْ

مِنْ أَينَ لِيْ

وَلكَ البدايةُ والقيامةُ

فِيكَ يَكتملُ الهِلال!.

لَكَ قمَّةُ الرُّؤْيَا

مُذْ مَرَّ الهواءُ علَى مَفارقِ روحِكَ وانكوَيت

يبعث الشاعر برسائله إلى الفلسطيني المقيم خارج الوطن، والفلسطيني المقيم داخل الوطن، وإلى كل شرفاء الأمة العربية، بأن يحملوا البلاد، ويخرجونها من مستنقع الذل، فكل واجد منا يجب عليه أن يقوم لنصرة القدس كل على قدر ما يستطيع .

فَاحمِلْ بلادَكَ

رُجَّهَا لَوْ شِئتَ

وَهَيِّئ لسَيِّدتي الأَنيقةِ مَا استطعتَ

مِنَ البياضِ المقدسِيِّ

فَكُنْ جرساً فِيْ مملكةِ الفجرِ

وَكُنْ كالبرقِ فِيْ ملكوتِ الغَسَق.

مُتَّكِئاً علَى خرائبِ روحِكَ

مُؤجَّلاً كقمرِ اليبابِ وشمسِ الفُقراء

يسعى المحتل بأن يظل أهل القدس بعيدين عنها، ويسعى دائما إلى إخراج من فيها إلى خارجها، كي تظل القدس بدون أهل ليفسح المجال للمستعمر الإسرائيلي بالإقامة فيها، فتتفتح نوافذ الغربة ففي كل يوم تفتح نافذة جديدة للغربة .

يَأخذُني البحرُ تماماً

يَفتحُ شُباكاً خلفيَّاً للغربةِ

تَحمِلُني ينابيعُ الجوعِ

فَتجهشُ فيَّ رائحةُ الوطنِ الطَّافحِ بالأَحزانِ

يَنهمرُ الوهجُ بقايَا لاْ أَعرِفُها

يعود الشاعر للتساؤل إن كان الموت سبيل للإغراء، ويجيب نفسه بالنفي، تأكيدا على أنه سيظل صامدا متمسكا بأرضه ووطنه .

يَرتعشُ علَى الشَّفتينِ سُؤال:

هَلْ يُغريكَ الموتُ؟

لاْ !

هَلْ يُغريكَ الموتُ؟

لاْ !

هَلْ يُغريكَ الموتُ؟

لاْ !

كَيفَ الرَّفضُ..

وَالموتُ قميصُ الرُّوحِ المتهيئ

فِيْ مهجعِكَ الموعُود

كَيفَ الرَّفضُ؟

وَفِي القلبِ مسارٌ يتململُ عندَ الحلمِ

يَا مِعراجاً يحملُ

فَوْحَ ثَراهَا

وَعَوْدَتَكَ المُنْتَظَرَة.

***

وتبقى القضية الفلسطينية هي النقطة المركزية عند شعرائنا والدفاع عنها من مقومات الحياة وكذلك القصيدة فلا الموت يغري ولا المنفى إلا أن أحلام الفلسطيني تحلق عاليا في سماء القدس فالقدس هي البداية وهي أم النهاية فرائحة الوطن المنتشرة عبر البحر وعبر الذكرى تلاحق الشاعر فيها يتشبث وببقية الوطن.

obeikandl.com

يقول الشاعر محمد علي شمس الدين: القدس أكثر من مدينة، بل لعلها رمز شعري يرتفع إلى مرتبة الرؤيا. إنها أيقونة مقدسة، وموطن نزاع ليس على السماء بل على الأرض. الإسلام جعلها مدينته، واليهود سمّوها أورشليم، والمسيحيون صاغوا جزءاً من قداستها لهم.

حتى الآن، هناك تاريخ للقدس أكثر من النصوص المكتوبة عنها. لقد دخلت في أدبيات الصراع التاريخي والسياسي قبل أن تحظى بشغف الشعراء والكتاب، ولكنها باعتقادي لم تكن رمزاً شديد الإثارة، لأن شعراء الحداثة العربية لم يكونوا ذوي اتجاه يقدس المدن لمجرد أن الأديان قدستها أو لأنها موضوع صراع ينبغي أن يكون عادلاً. القدس لم تختلف عن المدن الأخرى في النتاج الشعري، بل إن مدناً فلسطينية أخرى حضرت بكثافة أكثر مثل: حيفا ويافا وعكا. القدس موجودة في وجداننا كجرح ورمز لقضية كبرى، ولكنها لم تترجم كفاية في الشعر.

ويقول محمود درويش: "هنا القدسُ يا امرأةً من حليب البلابل"، ولكن عليك أن تشرح طويلاً معنى "حليب البلابل" لأهل القدس ولجمهور الشعر عموماً.

ويقول الناقد التشكيلي فيصل سلطان: أظن أن القدس هي ضحية غياب إستراتيجية ثقافية فاعلة ومنظمة ومستمرة لإبقائها في دائرة الضوء، وبالتالي حمايتها من مخططات التهويد المستمرة من قبل الاحتلال الإسرائيلي. هناك كتابات ونصوص وأعمال كثيرة، إضافة إلى النقاش الفكري والسياسي الذي لم يتوقف منذ نشوء القضية الفلسطينية عام،1948 بل إن بعض هذه الأعمال والجهود الصادقة بدأت قبل ذلك بسنوات، ولكن المشكلة في رأيي موجودة في العقل العربي الذي حوّل القضية الفلسطينية والقدس في قلبها إلى أيقونة وجدانية وجرح نفسي، بدلاً من أن تكون هدفاً ملموساً وقضية واقعية. صحيح أن موازين القوى لم تكن يوماً لمصلحتنا، ولكن العرب كحكومات وأنظمة

استكانت لفكرة أن العدو أقوى، كما أن بعض هذه الأنظمة تاجرت بالقضية الفلسطينية، وتحولت القدس في خطابها إلى مادة لفظية وجزءاً من أكليشيهات النضال اللغوي الذي تحول مع الوقت إلى لغوٍ سياسي يصعب ترجمته للمواطن العربي قبل ترجمته للرأي العام العالمي. ضمن هذه الصورة، يبدو المثقف العربي أمام قضايا عدة، فعليه أن يكون كاتباً جيداً ومصلحاً اجتماعياً ومناضلاً سياسياً وناشطاً في قضايا الحريات والتعبير. المثقف الفلسطيني لصيق بقضيته أكثر من المثقف العربي المحارب من قبل الأنظمة التي يعيش فيها، وعليه في الوقت نفسه أن يكون صوتاً مختلفاً وضميراً لشعبه وشاهداً حقيقياً على الواقع.

(محمد الزينو السلوم: القدس في الشعر العربي القديم والحديث. http://www.alkhaleej.ae)

والسؤال هنا: هل استطاع المثقف الفلسطيني أن يتمم صموده أمام هذا التحدي ويقدم للقدس بعض ما تستحقه؟

لا نزايد حين نقول أن الفلسطيني القادر على التصدي لترسانة المحتل بصدره العاري عاجزا عن مواصلة مسيرته النضالية ؛ التي تكبد مسؤوليتها منذ أن وطئ المحتل أرضه وقدسه هذه المسيرة التي لم ولن تقتصر على المواجهة المباشرة لعدوه في الميدان، بل اشتركت كافة شرائح المجتمع الفلسطيني كمجتمع نضالي متكامل في هذه المسؤولية جنبا إلى جنب، فتكاتف الجميع مثقفاً وأديبا وشاعرا وكاتباً كلّ بلونه وأسلوبه لهدف واحد استطاعوا وبجدارة أن يطوعوا اللغة بمفرداتها؛ لخدمة الأرض والوطن والقدس والقضية فخلقوا من الحرف رصاصات تجتث فكرة وادعاءات الوجود الغاشم للمحتل. فحملوا القدس والقضية إلى كل المحافل الدولية .

وأصبحت القدس أهم رمز لأكبر وأطول صراع معاصر، وهو صراع العرب والمسلمين مع العدو الصهيوني الاستعماري الاستيطاني، وغدت إلى جانب ذلك عنواناً

للقضية الفلسطينية وبوابتها، وقضية العرب كل العرب مسلمين ومسيحيين، والمسلمين عموماً وجميع الأحرار في العالم. ورغم محاولات التهويد وطمس تاريخها الطويل، من قبل المحتل الغاصب إلا أنهم مع بعض إخوانهم العرب تصدوا بكل وسائل القول والتعبير لسياسة الإنهاك والتيئيس التي اعتمدها الكيان الصهيوني وأعوانه، إلا أن ذلك كله ظل دون حجم الجهد المطلوب، وفاءً للقدس القضية.

فها هو الشاعر الموريتاني (فاضل أمين) يعبر عن غضبة الشعب في إطار معركته الوجودية قبل عدة عقود فيقول:

يا أيها الباكون في أعطافها والحاملون إلى الصلاة زمامها

القدس أكبر من حكاية ناكص ومن العجائز نمقت أحلامها

القدس ليست خيمة عربية ضاعت فردد شاعر أنغامها

القدس ليست قصة وهمية تذروا الرياح الذاريات كلامها

القدس تولد من هنا من شمسنا ومن الروابي يحتسين ضرامها

فهذا شاعرنا العربي يذكر الجميع بأن مدينة القدس هي أكبر من أي قضية وهي أكبر من حكاية فالقدس كما يقول تولد من هنا من شمسنا أي أن القدس صاحبة حق واضح ولا لأحد عليها يد في ذلك فقضية فلسطين والقدس ليست مجرد كلام تذروه الرياح.

وكذلك قصيدة قصيدة (أبو علي الحسن بن علي الجويني) في فتح بيت المقدس:

جُنْدُ السماءِ لهذا المُلكِ أعوانُ وقد مضتْ قَبْلُ أزمانٌ وأزمانُ

متى رأى الناسُ ما تَحْكِيه من زَمَنٍ لها سوى الشُّكْرِ بالأفْعَالِ أَثْمَانُ

فالآن لَبَّى صلاحُ الدين دَعْوَتَهُمْ سَمَتْ لها هِمَمُ الأملاكِ مُذْ كانوا

للناصر ادُّخِرَتْ هذي الفتوحُ وما لَ الناس دَاودُ هذا أَمْ سُليمان؟

(محمد الزينو السلوم: القدس في الشعر العربي القديم والحديث. المرجع: محمد نجيب المعاذ. مجلة البحث التاريخي تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص)

وهناك عشرات النصوص الأدبية النثرية والشعرية التي تناولت القدس منذ العصر الإسلامي، ولعلنا نستعرض بعض النصوص الشعرية التي قيلت في ذلك.

وحين احتُلَّتَ القدس ثانيةً من قِبَل الصليبيين، رثاها الشاعر الفاضل شهاب الدين أبو يوسف، إذ قال:

لتبكِ على القدس البلادُ بأسرها وتُعْلن بالأحزان والترحاتِ

لتبكِ عليها مكةٌ فَهْيَ أُخْتُهَا وتشكُ الذي لاقتْ إلى عرفاتِ

لتبكِ على ما حَلَّ بالقدس طَيْبَةٌ وتشرَحه في أكرمِ الحُجُراتِ

وقال الشاعر ابن مطروح في فتح القدس الثاني، مُشِيرًا إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي والناصر قلاوون:

المسجد الأقصى له عادةٌ سارتْ، فصارتْ مثلًا سائرًا

إنْ عادَهُ بالكفر مستوطنًا أن يبعثَ الله له ناصرًا

فنـــاصرٌ طَهَّـــرَهُ أولًا ونـــاصرٌ طَهَّـــرَهُ آخـــرَا

وقد حضّ الشعراءُ الحُكَّامَ على تخليص بيت المقدس من الفرنجة، فذا الشاعر ابن القيسراني يهيب بنور الدين محمود أنْ يُخَلِّصَ القدس من براثن المحتلين قائلًا :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مُرْتَقَبُ

وائـذنْ لموجِـكَ في تطهـيرِ سـاحلِه فـإنما أنـت بَحْـرٌ لُجُّـهُ لَجَـبُ

وهذا خليل مطران (1871-1949)، في قصيدة "تحية للقدس الشريف"،لا يجد إلا لغة التعميم في ذكره حبه لها:

سلامٌ على القدس الشريف ومن به على جامع الأضداد في إرث حبه

على البلد الطهر الذي تحت تربه قلوبٌ غدت حبّاتها بعض تربه

وهذا علي محمود طه (1902-1949) وهو من الشعراء المصريين القلائل الّذين أوردوا ذكر القدس، وتناولوا القضية الفلسطينية حينها- يقول:

أخي إن في القدس أختًا لنا أعد لها الذابحون المدى

أخي قم إلى قبلة المشركين لنحمي الكنيسة والمسجدا

وبنفس الروح وفي إشارات مماثلة يقول عمر أبو ريشة (1910-1991):

يـا روابي القـدس يـا مجـلى الـسنا يـا رؤى عيسى على جفن النبي

أو يقول:

يـــا تثنـــي الـــبراق في ليلـــة الأسر اء والـــوحي ممـــسك بعنانـــه

وفي الشعر الفلسطيني الحديث يخصص إبراهيم طوقان (1905-1941) قصيدة له بعنوان "القدس" ولكنه لم يتناول فيها إلا ما وصفه "التطاحن الحربي الذي تفشى في فلسطين حينذاك"، وكانت القدس بوصفها عاصمة البلاد مركز ذلك التطاحن.

(محمد الزينو السلوم: القدس في الشعر العربي القديم والحديث. القراءات النقدية في الشعر. المرجع: محمد نجيب المعاذ. مجلة البحث التاريخي تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص.

***

"على كتف القدس" للشاعر يوسف عبد العزيز الذي يستذكر قطنة بلدته القريبة من القدس ويحاكي جرح المكان والزمان وعن منفاه وغربته وضياع حقه وهويته التي تشتت مع غربة الذات إلى غربة الجسد هناك في شتاته حيث لم يبق إلا الذكريات في جعبته يجالسها:

لا شيء في جعبتي

غيرُ حُقٍّ من الذِّكرياتِ

أكبكبُها في جرودِ المنافي

فتخضرّ...

حيث يجذبه ذاك الحنين الملاصق لقلبه وعقله لكن دون أمل وكأنها غيمة باهتة لم يجد إلا حطام قصائد بعد كل هذا الحنين وهذا الحلم الذي يكاد أن يقهر فيه الحقيقة:

حين أفقت وجدت جحيمي

أمامي

وما كان في سلّتي

غيرُ قشرِ الرّؤى

وحُطامِ القصائدِ

في الباب رجّ الحنين ضلوعي

وحاولتُ أن أتماسكَ

همهمَ قلبي فكمَّمتُهُ بالأصابعِ

ثمّ مشيتُ وراءَ الصَّبيِّ

الذي راح يخفقُ مثل الحمامةِ

في غيمةِ الطِّينِ

وهنا الصبي كشخصية بالقصيدة مرتبط بالاحتلال ومدة هجرة الشاعر وتواجده في منفاه حيث قال شاعرنا في رائعته:

من مكمني بعد خمسين عاماً

أرى الأمّ تمسكني

من ذراعي

وتسألني بحنان:

وأنت أما نمتَ يا ولدي؟

فيردّ الصّبيّ الذي فيَّ

تعبان يمّاااا

وعطشانُ عطشانُ عطشانُ

ها إنّني في شعاب الجحيم أدور

وريح السّموم تَحُتُّ عظامي

ويأتي المشهد السكري الذي يصف فيه جمال القدس من وراء البحر ويقول لشدة ضوئها لا يستطيع الناظر التحديق بهذا الجمال ويصفها أنها كالفرس بجناحين:

وإذا التفتَ المرء للقدسِ

يمكنُ أن يتراءى لهُ فرس بجناحين

يلتهبانِ من النّورِ

لكنّه لن يرى أيّ شيءٍ هناكَ

لأنّ الضّياء الشّديد

سيخطف عينيهِ

obeikandl.com

ويعود ليتذكر الأيام الجميلة التي قضاها وهو طفل يلعب ببراءة الأطفال في ذاك العمر قبل الاحتلال واصفا موقعها وطريقة اللعب وحتى الفرحة العارمة التي كانت تملأ عليه الحياة ليعود ويجد نفسه من جديد في منفاه بلا وطن:

في ذلك الموقع المرتفعْ

كان قلبي ينطّ ويلعبُ

مثلَ الأرانبِ

والبطّ

والحجل الل.....

حتى يصل إلى نقطته الهاربة

الماءُ أفعى رآنا

فحدَّقَ فينا

ودقَّ التُّرابَ

وخوَّضَ في السَّهلِ حتى تعكَّر

وها هي رائعة الشاعر يوسف عبد العزيز كاملة أمام القارئ العربي الذي لا بد أن يقرأ العمق الدلالي فيها للمكان والزمان:

الزيارة

قربَ بابٍ سميكٍ خشب

حيث ريشُ الظّلال

يتموّجُ

والبومُ ترعى الخرائبَ

أبصرُ من مكمني بعد خمسين عاماً

صبيّاً نحيلاً

بعينين حائمتين

وقنزعةٍ من ذهب

وهو يلمعُ وقتَ الغروبِ

ويدلفُ مع أختهِ الشّاةِ للبيتِ...

من مكمني أدخلُ الآن خلفَهما

لأرى ما يراهُ الغريقُ

قُبيلَ السُّقوطِ الرّهيبِ إلى القاعِ

obeikandl.com

لا شيء في جعبتي

غيرُ حُقٍّ من الذِّكرياتِ

أكبكبُها في جرودِ المنافي

فتخضرّ....

مثل هبّةِ ريحٍ خفيفة

عبرتُ

وكنت أحاذرُ ألاّ يراني أحد

أحاذر ألاّ يراني الصّبيُّ النّحيلُ

ليلقي عليّ السّؤالَ المباغتَ

مَن أنتَ!

كنتُ أبدو كفزّاعةٍ ضربتها الزّوابعُ

عينايَ جاحظتانِ

ورأسي يغطّيه شوكٌ كثيفٌ

ولا شيءَ فيّ يدلّ عليّ

obeikandl.com

لذا

رحتُ أدخلُ في هيئة الرّيحِ....

في الباب رجّ الحنين ضلوعي

وحاولتُ أن أتماسكَ

همهمَ قلبي فكمَّمتُهُ بالأصابعِ

ثمّ مشيتُ وراءَ الصَّبيِّ

الذي راح يخفقُ مثل الحمامةِ

في غيمةِ الطِّينِ

في غيمة الطّين

في الفكرةِ الخلّبيَّةِ للبيت

رحتُ أُعانقُ ناري القديمةَ

أبكي وأضحكُ

أرقصُ محتفلاً بدماري

... ومتّخذاً هيئةَ الرّيحِ

obeikandl.com

رفرفتُ كالهذيان على كلّ شيءٍ

وبلّلتُه بذهولي

هناك

سقطت على أرض روحي

رأيت الذي لا يراه المسافرُ في الحلم

إلاّ إذا جُنّ في اليقظة

رأيت الذي قد يراه المطر

وهو يجرح بالحدقاتِ

الصّغيرةِ لحم التّرابِ

ويأوي إلى رحم الأرضِ

حين أفقت وجدت جحيمي

أمامي

وما كان في سلّتي

غيرُ قشرِ الرّؤى

obeikandl.com

وحُطامِ القصائدِ

ليلاً صغيراً على تلّةٍ

كنت أضرب في التّيه

ما كان بيتي معي

كان يخفق كالنّجم فوق مياه الظّلامِ

ودليلي إليه صبيٌّ تشاغل عنّيَ

بالرّكض خلف العصافيرِ

صحت اقترب

أيّها الأرنبُ المتلصِّصُ

خلفَ كلامي

غير أنّ الصَّبيَّ

وقد تعبت قدماه من اللعب

اندسَّ تحتَ اللحافِ

وصار يراقب عينَ السِّراجِ

obeikandl.com

الضَّريرةَ وهي تنوسُ

فيبصر أجنحةً لخفافيشَ هائلةٍ

تعبرُ البيتَ

أغمضَ عينيهِ حتى ينامَ

ولكنّه حينما سمع الأمَّ

وهي تحادث روح الظّلامِ

أفاق من النَّومِ

بين الخيالِ وبين الحقيقةِ

شاهدَ أفعى ممدّةً

وهي تُنصتُ للأمِّ

(نام الجميع فنامي

ارجعي يا مباركةً نحو ركنكِ

في السّقفِ)

تلك الزّيارة

أرعبتْه

ولكنّها فتنته فصار ربيب أفاعٍ

يحادثها بالإشارة

ويركضُ في إثرها

ليلمّ مناديلَها القزحيّةَ

من مكمني بعد خمسين عاماً

أرى الأمّ تمسكني

من ذراعي

وتسألني بحنان:

وأنت أما نمتَ يا ولدي؟

فيردّ الصّبيّ الذي فيَّ

تعبان يّاااااا

وعطشانُ عطشانُ عطشانُ

ها إنّني في شعاب الجحيم أدور

obeikandl.com

وريح السّموم تَحُتُّ عظامي

بعد خمسين عاماً

تراني اكتهلتُ؟

أنا ما كبرتُ

ولكنّني ربّما يبست قامتي

فتساقط منها حصى

وترابٌ

ربّما طالَ شَعري

وحطَّ على كتفيّ كسقفٍ من (البوصِ)

من مكمني بعد خمسين عاماً

أراني وقد صرت بيتاً عتيقاً

ببومٍ على غرّتي

وبابٍ سميكٍ خشب

مرّةً وعلى مفرقٍ غامضٍ

obeikandl.com

التقاني صبيٌّ

بعينين حائرتين

وقنزعةٍ من ذهب

فحدّق فيّ وحدّقتُ فيه

ولكنّني حين طوّقتُه بيديّ

احتجَب.

المشهدُ السُّكَّريّ

في الطَّريق إلى البحر صادفتُ

رفَّ حَجَل

حجلٍ أصفرَ ومنقّط

بدوائر سوداءَ

في ذلكَ الموقعِ المرتفع

من سماءِ البلادِ

على كتِفِ القدسِ

obeikandl.com

يمكنُ للمرء أن يتأمّلَ

بطنَ السّحابةِ

وهو يمرّ على السّرو

أبيضَ أبيضَ مثل الحليب

ويعلوه بعضُ النّمَشْ

أن يرى من بعيدٍ

يدَ البحرِ

وهي تلوّحُ مزدانةً بالخواتمِ

والبرق يقطر منها

كما يقطر الضّوء من حدقات القمرْ

وإذا التفتَ المرء للقدسِ

يمكنُ أن يتراءى لهُ فرس بجناحين

يلتهبانِ من النّورِ

لكنّه لن يرى أيّ شيءٍ هناكَ

obeikandl.com

لأنّ الضّياء الشّديد

سيخطف عينيهِ

في ذلك الموقع المرتفعْ

كان قلبي ينطّ ويلعبُ

مثلَ الأرانبِ

والبطّ

والحجل الل.....

آهِ إنّي نسيتُ الحكايةَ

فالمشهد الحارق الطّائش السّكّريّ

يرجّ الكلامَ

ويعبثُ بالسّاردِ المنتبهْ

ليطيش إلى فلواتٍ بعيدة

مثلما يفعلُ الشّعر وقتَ القصيدة

كان يمكن لي أن أرى الأرض أكثرْ

وأشمّ الحليب الذي يتفجّرْ

في عروق الحجارةِ

والعشبِ

والتّينِ

والصّبرِ

لولا الظّهور المفاجئ للجندِ

واللكنةِ المضحكة

روخ خ خ خ خ خ خ خ

رحتُ

لكنّ قلبيَ

ظلّ هناكَ ينطّ ويلعبُ

مثلَ الأرانب

والبطّ

والحجل الل.....

obeikandl.com

آهِ إنّي نسيتُ الحكايةَ ثانيةً

فاعذروني.

نقطة هاربة

الهواءُ المغنّي

يفكُّ جدائلَهُ في الحقولِ

ويُسنِدُ رأسَه

على حجرٍ

ويُصفِّر

السّحابةُ حمراء

والسَّروُ أخضر

الوقتُ في آخرِ الصَّيفِ

والماءُ يلمعُ في عُنُقِ الأرضِ

كالسَّيفِ...

الماءُ أفعى رآنا

obeikandl.com

فحدَّقَ فينا

ودقَّ التُّرابَ

وخوَّضَ في السَّهلِ حتى تعكَّر

على طَرَفِ الماءِ

تظهرُ بعضُ البيوتِ الصَّغيرةِ

مثلَ السَّلاحفِ

شرقاً

نرى شرشفَ القمحِ

وهو يرفُّ على التَّلِّ

أصفرَ

أصفر

فوقَهُ نقطةٌ تتحرَّكُ هاربةً

لفتى هاربٍ

حيثُ نسمعُ في الأودية

obeikandl.com

رعدَ والدِهِ يتكسَّر

وهوَ يُنادي عليه.

***

ومن شعراء العصر الحديث، الشاعر الفلسطيني محمد حلمي الريشة، في مطولته الشعرية: "زنبقة وَأَلْفُ عُصْفُورٍ".

يستنكر الشاعر معاناة القدس في وسط الصمت العربي، كأن العرب نيام، أي نوم هذا، فكيف ينام من أخته في الأسر تبكي، واعتداءات المستعمر لا تتوقف، طاحونة الموت تلتهم حشاها، مستوطنة تبتلع الأرض، ونفق يحفر تحت المسجد كي ينهار، وطفل يبكي من روع ، وعجوز تجلس على أرض الحاجز، تنتظر المحتل ليسمح بالدخول أو الخروج. والعرب في دعة العيش يراوغهم حلم لا يأتي.

.1

فِي الْأَرْضِ زَنْبَقَةٌ تُشَكِّلُ حَالَهَا بِالْجُرْحِ

تَغْسِلُ حُزْنَهَا بِاللَّوْمِ،

وَالْوَقْتِ الْمُبَاحِ عَلَى نَوَافِذِهَا،

وَسَاحَاتِ اخْتِصَارِ الرُّوحِ

فِي نَزْفٍ جُنُونِيٍّ

تَظَلُّ عَلَى سِيَاجِ الرُّعْبِ

تَنْشُرُ ظِلَّهَا

مَا بَيْنَ لَحْمٍ فِي الْعَرَاءِ وَأَلْفِ عَامٍ

مِثْلَ عُصْفُورٍ تَسَاقَطَ وَاقِفًا

وَالسُّورُ يَنْمُو مِثْلَ مَدِّ الْيَاسَمِينِ عَلَى الشَّوَاهِدِ..

أَيُّ زَنْبَقَةٍ يُدَوِّي لَوْنُهَا الْمَرْصُودُ

فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ،

ثُمَّ تَدْخُلُ فِي غُبَارِ الصَّيْدِ شَاحِبَةً،

وَشَاحِذَةً سَوَاعِدَهَا عَلَى قِمَمِ الْغُزَاةِ

تَسَاقَطَتْ أُسْطُورَةُ النَّقْشِ الْقَدِيمِ

تَفَجَّرَتْ كُلُّ الْمَوَاوِيلِ

الْبِلَادِ،

وَحَاكَتِ النِّيرَانُ مَوْسِمَهَا

بِأَسْمَاءِ السُّؤَالِ الْمُرِّ

فِي صَمْتِ الْقَبَائِلِ.

يرنو الشاعر إلى المستقبل، ينتظر مخاض القضية، ويأتي المولود على أسوار القدس، لتحرير المدينة المقدسة، فالله أكبر من جبروت الظالم، فمهما طال العذاب، ومهما عظم فالله يوماً سينتصر للمظلوم، وتتحرر المدينة ويعم السلام، ويأتي المطر ليغسل الرجس عن المدينة.

.2

فِي الْأَرْضِ طُوفَانُ المَخَاضِ

الْعَتْمِ

شَهْقَةُ وَرْدَةِ الْأَسْوَارِ،

وَالْقَمَرُ الْمُرَكَّبُ فَوْقَ نَاصِيَةِ الضَّحَايَا..

فِي الْأَرْضِ جُرْحٌ لَا يَغِيبُ،

وَشُرْفَةٌ تَرْنُو إِلَى الْجَسَدِ الْمُمَدَّدِ فَوْقَ حَقْلِ اللهِ هَاتِفَةً:

بِأَنَّ اللهَ أَكْبَرُ مِنْ كَبَائِرِهِمْ،

وَأَكْبَرُ مِنْ مَسَاحَاتِ الْيَدِ السَّوْدَاءِ؛

تَعْبَثُ فِي عُيُونِ الضَّوْءِ

تَسْرِقُ رِيشَ طَائِرِهَا..

خُذُوا عَنِّي حِجَارَتَكُمْ

خُذُوا عَنِّي شِتَاءَ الشَّوْقِ

سَهْمَ الْبَرْقِ

فَصْلًا مِنْ وَصَايَاهَا.

يرسم الشاعر لوحة غنائية جميلة لقطرات المطر الخفيف في سهول القدس، عندما تعانقها أشعة الشمس الذهبية، فيعيد الحياة للمدينة من جديد، بعد أن أحرقت، فقطرات المطر ترمز للحياة وللأمل، فالأمل يداعب قلب الشاعر، فمهما حلك الظلام، فالنور يبدد الظلمة، والماء يطفئ نار الظلم مهما عظم، لتغني الصخرة الشريفة ألحان الحب والحياة، وتداوي الزنابق جراح الطيور.

.3

تَتَلَأْلَأُ الْقَطَرَاتُ فِي السَّهْلِ الْمُهَيَّأْ

– لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ –

تَنْقُشُ لَوْنَهَا فِي أَوَّلِ الْأَغْصَانِ؛

كَيْفَ يَصِيرُ هذَا السَّطْحُ وَرْدِيًّا،

وَأَعْمَقَ مِنْ مُحِيطِ النَّارِ

أَسْرَعَ مِنْ وُضُوحِ الشَّمْسِ

فِي صَيْفٍ خُرَافِيٍّ

لِيَنْشُرَ قُبَّةَ الشُّهَدَاءِ

فَوْقَ رُخَامِ هذَا الحَطْوِ؟

كَيْفَ يَمُرُّ هذَا الْغَيْثُ مُلْتَحِمًا

بِجَمْرِ النَّجْمِ

مُلْتَحِفًا بِأَقْمَارٍ،

وَلَمْ تَنْزِفْ سِوَى لِلْأَرْضِ زَنْبَقَةٌ

تُشَكِّلُ وَجْهَهَا بِالْجُرْحِ

تَغْسِلُ حُزْنَهَا بِالْوَعْدِ

تُبْقِي لِي بَقَايَاهَا؟

لم تسمح القدس للضجيج أن يمحوا صفوها، وإن كانت جراح القلب ملتهبة، وشظايا اللؤم لا زالت، والنار تحاصر القدس وتحبس الهواء، فإن إرادة القدس لا زالت قوية، وبإذن الله سوف تعافى من جراحها، وتبقى الحياة، وتبقى للحياة رمزاً خالداً،

obeikandl.com

فالسحب الرمادية رمز للأمطار التي تبقي الحياة في القدس، فالعصافير تحلق فوق ولائم التحرير.

.4

طَوْقٌ عَلَى شِفَةِ الضَّجِيجِ،

وَلَمْ يُسَافِرْ حُزْنُهَا فِي مُنْتَهَاهْ؛

فِي الصَّدْرِ أَكْثَرُ مِنْ شَظِيَّةْ

فِي الْعَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ كَثَافَةِ مَعْرَكَةْ؛

هذَا جُنُونُ النَّارِ يَرْشُقُ أَلْفَ عُصْفُورِ

يُحَاصِرُ أَلْفَ خَاصِرَةٍ،

ويَخْطُو حَوْلَ دَائِرَةٍ

لِيَكْتَمِلَ الْهَوَاءُ الصَّلْبُ فِي قَفَصٍ

مِنَ الْأَصْفَادِ وَالسُّحُبِ الرَّمَادِيَّةْ..

فِي أَيِّ مَسْأَلَةٍ وَمَجْزَرَةٍ

يُصَادِفُ عِشْقَهُ المَنْسِيُّ

فِي كُلِّ اخْتِلَافِ الصَّوْتِ

فِي قِصَصٍ خُرَافِيَّةْ؟

الْجَوُّ أَقْسَى مِنْ نَشِيدٍ لَا يُقَالْ،

وَصَدَى الرَّصَاصِ يَقُولُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ

دُوَلٌ مِنَ الإِسْفِنْجِ أَنْ تَحْمِي

بِكَارَتَهَا الْأَخِيرَةَ مِنْ صَدَاهْ..

طَوْقٌ عَلَى شَفَةِ الْحَيَاةِ،

وَأَلْفُ عُصْفُورٍ،

وَزَنْبَقَةٌ تُقِيمُ وَلَائِمَ الْعُرْسِ الْكَثِيرَةَ

كَيْ يُسَافِرَ جُرْحُهَا فِي مُنْتَهَاهْ.

في الأرض ما لا ينتهي، يظل الأمل بالتحرر يسيطر على المدينة وعلى الشاعر، فإن الشعب الفلسطيني يأخذ ناره من أرضه، فحلم تحرير المدينة ينير طريق الجهاد المقدس، فرغم الضعف الذي رمز الشاعر له بعبارة "تشقق الأقواس" إلا أنه هذه الأقواس تشع نوراً وناراً، فرائحة الأزهار البرية دلالة على الحياة، فما دامت هناك حياة فالأمل بالتحرر موجود، مهما حاول الظالم من إطفاء هذا الحلم، واستخدم الشاعر الوشم كدلالة على الثبات والديمومة، فمآذن المساجد تكبر للحياة، ويتساءل الشاعر: هل النعاس غلب

الصراخ في القدس؟ وطالب بإيقاظ الحزن القديم، كي يحيى الجهاد من جديد، لتبقى الحياة، فالأموات لا يحملون أحلام الطفولة.

.5

فِي الْأَرْضِ مَا لَا يَنْتَهِي..

هَلْ تَحْمِلُ الْأَحْلَامُ لَيْلَتَهَا نَهَارًا

فَوْقَ سُورِ الْقُدْسِ

كَالْقَمَرِ الْأَخِيرِ

يُشِعُّ فَوْقَ تَشَقُّقِ الْأَقْوَاسِ

فَوْقَ مَسَارِحِ الْأَزْهَارِ عَابِقَةً

بِأَوْصَافِ النَّدَى الْوَرْدِيِّ

تَسْحَبُ قُرْصَهَا لِلْمَجْدِ مَوْشُومًا

بِأَسْمَاءِ الْعَصَافِيرِ الَّتِي مَدَّتْ دَوَائِرَهَا الطَّرِيَّةَ

حَوْلَ زَنْبَقَةٍ تُطَارِدُ قَاتِلِيهَا

فِي شُمُوخِ مَآذِنِ التَّكْبِيرِ؟

obeikandl.com

هَلْ خَرَجَ الصُّرَاخُ إِلَى النُّعَاسِ،

وَأَيْقَظَ الْحُزْنَ الْقَدِيمْ؟

لَا تَحْمِلُ الْأَمْوَاتُ أَعْصَابَ الطُّفُولَةِ،

أَوْ جِرَاحَ غَزَالَةِ الْأَرْضِ الْأَسِيرَةْ..

فِي الْأَرْضِ مَا لَا يَنْتَهِي

عِطْرٌ مِنَ الْأَضْوَاءِ يَكْسِرُ حَالَةَ الْعَتْمِ الْكَبِيرَةْ.

وهنا يستنهض الشاعر همم العرب، ويدعوهم إلى سباق التحرير، فمن الذي سيسجل شرف التحرير، من سيخلد اسمه في التاريخ. والريشة هو شاعر من نوع آخر يحمل هم المدينة عن قرب؛ فالقدس كالزنبقة تعيش لوحدها رغم كل المآسي حولها تسقى من دماء الشهداء وتلوم إخوانها المتقاعسين عن الدفاع عنها، فالجرائم دائرة فيها من قتل للعصافير (الأطفال) ومن حصار للمدن ومحاولات اليهود المتعددة لتهويد المدينة وتزيف تاريخها، ولكن قوة الحق والإيمان الذي تملكه القدس يجعلها تقاوم وتقاوم لتظل هي الأقوى، فهي على يقين بأن الفجر قادم لا محالة، وسيأتي فجر القدس ليبدد عتمتها، فالله أكبر من جرائم المحتل ومن أفعالهم، ويوجه شاعرنا نداءه للمحتل ليحمل ما تبقى له ويرحل عن وجه القدس، فما يحدث في القدس يجعل المرارة لا تغادر حياة الشاعر، ويتأسف شاعرنا لأحاديث السلام العابرة التي لا دخل للمدينة فيها. ورغم كل محاولات العدو لتقطيع أواصر المدينة عن باقي المدن إلا أنها تظل هي حلقة الوصل بين كل المدن جسديا وروحيا.

obeikandl.com

.6

مَنْ يَكْتُبُ السَّطْرَ الْأَخِيرَ

لِقِصَّةِ المَوْتِ الْكَبِيرَةْ؟

تذوق الشاعر طعم المرارة، التي تعانيها القدس، ويعانيها أبناء العرب، فيسأل السؤال المرّ، هل غدا العرب يستلذون بطعم المرض؟ هل نسمح للأعداء أن يفقدوا الخوف من مقاومتنا؟ فالإجابة تطرح نفسها، بأننا هنّا على أنفسنا وهنّا على أعدائنا.

.7

هَلْ وَحْدَنَا فِي الدَّاءِ يَا كُلِّي الَّذِي

يَتَقَطَّرُ الْإِرْثَ الْقَدِيمْ؟

طَعْمُ المَرَارَةِ فِي السُّؤَالِ،

وَفِي السُّؤَالِ إِجَابَةُ النُّطْقِ الْأَثِيمْ..

كَمْ أَعْرِفُ الْأَلْعَابَ وَالشَّهَوَاتِ مَصْعُوقًا،

وَفِي الْقَلْبِ الْجَحِيمْ..

ضَاقَتْ تَفَاصِيلُ الْجُنُونِ، وَأَيْقَظَتْنِي

لُعْبَةُ الْكَلِمَاتِ فِي شَقِّ المَمَالِكْ..

هَلْ وَحْدَنَا فِي سَاعةِ الطَّاعُونِ

نَأْذَنُ لِلْخُصُومِ بِأَنْ يَفرُّوا نَحْوَنَا؟

هَلْ وَحْدَنَا؟

مَا أَسْهَلَ الْإِيقَاعَ فِي مُلْكِ السَّبَايَا؛

أَعْلَى مِنَ الْقَسَمِ/ الْحُطَامِ،

وَمِنْ صَفَاءِ تَفَكُّكِ الدَّمْعِ الْحَرَامْ..

وُلِدَتْ مِنَ المَوْتِ المَرَايَا..

يَا وَحْدَنَا فِي الْغَابِ قُلْ لِي:

كَيْفَ تَنْتَصِرُ السَّبَايَا؟

يسأل الشاعر العربي إن كان يعرف لون الحقيقة، أم إنه ظل في السراب يسير، أو إنه يدرك مدى المخاطر التي تهدد المدينة المقدسة، إلى متى يسيطر على بني العرب الخمول؟ فوا أسفاه على العروبة والعرب، لم يعد للنخوة فيهم سبيل، لا يعرفون سوى التحسر على ما مضى.

.8

obeikandl.com

هَلْ صِرْتَ تَعْرِفُ لَوْنَ جِلْدِكَ

أَيُّهَا الظِّلُّ المُفَتَّتْ؟

هَلْ صِرْتَ تَعْرِفُ نَجْمَةَ الرِّيحِ/ الْخُرَافَةْ؟

هَلْ صِرْتَ تَعْرِفُ مَوْجَةَ النِّسْيَانِ

مِشْنَقَةً لِزَنْبَقَةٍ

وَمِقْصَلَةً لِأَلْفِ عُصْفُورٍ مُشَتَّتْ؟

هَلْ صِرْتَ تَعْرِفُ كَيْفَ يَسْرِقُ

أَوَّلُ الْبُرْكَانِ حَتْفِيَ

ثُمَّ يَمْضِي شَاكِيًا بَيْنَ الرُّكَامْ؟

أَسَفِي

عَلَى

أَسَفِي

عَلَى

الظِّلِّ السَّلَامْ.

obeikandl.com

يغرق الشاعر في السؤال، وكثرة الأسئلة هنا تدل على أن وضع العرب في تردي، فلم يعودوا عرباً، وأي عرب يكونون وقدسهم تغتصب، وحرمتها تنتهك، وباحاتها تدنس، هل سيسطر التاريخ مجداً للعرب؟ ويعيد المجال للسباق العربي مرة أخرى، من سيفوز بلقب محرر القدس من جديد؟

.9

مَنْ يَكْتُبُ التَّارِيخَ بَعْدَكَ؟

مَنْ يُؤَرِّخُ لِلدُّخَانْ؟

صِفْرٌ عَلَى سِفْرِ السَّوَادِ،

وَنُقْطَةٌ فَوْقَ المَكَانْ..

مَنْ يَمْسَحُ الْجُرْحَ الْجَدِيدَ، وَيَسْتَعِيدُ الذَّاكِرَةْ؟

فِي الْقُدْسِ قَوْسٌ لِلْعُبُورِ يَمُدُّهُ لِلنَّاصِرَةْ.

مَنْ يَكْتُبُ السَّطْرَ الْأَخِيرَ لِنَجْمَةٍ فِي الْخَاصِرَةْ؟

مَنْ

يَكْتُبُ

السَّطْرَ

الْأَخِيرَ

لِنَجْمَةٍ

فِي

الْخَاصِرَةْ؟

(محمد حلمي الريشة : الأعمال الشعرية- الجزء الأول، وزارة الثقافة وبيت الشعر، رام الله، 2008م)

* * *

أيضا أستشهد ببعض نصوص تجلت فيها مدينة القدس، فذا الشاعر الفلسطيني سامي مهنا يقول:

القدسُ تحملُ الشُّهداءَ على راحَتَيْها

مئذنةٌ مَهْمومةٌ تذوب

كشمعة في معبدٍ قديمْ

فلا حياةٌ... لا صلاةٌ

بلْ صدى تكبيرةٍ

تجولُ في المدى

تعانقُ الهمومْ

فَتحملُ الرَّجاءْ

obeikandl.com

ومركعٌ في باحةِ الأقصى يقومْ

ويلحَقُ الرّسولَ للسَّماءْ

والقبّةُ الملساءُ كالفؤادْ

دقّاتُها الصّلاةْ

هلْ علَّمَتْ أحياءنا معنى الحياةْ؟

وعَلّمتْ أمواتَنا معنى الصمودْ؟

من علّمَ الأيتامَ درساً في الجدودْ؟

كي يكسروا القيودْ

ويطبعوا الأملْ

فوقَ الدّروبِ النافيةْ

حقّاً لأقدامِ اليتيم الحافيةْ

يا شهداءَنا

دماؤكم دماؤنا وجرحُكم شفاؤُنا

تعمّدوا بدمعنا وعمِّدوا أحياءَنا

obeikandl.com

وعلّموا الحياةَ أن تعيشْ

وقربّونا للسماءْ

يناضلُ الشَّهيدُ في المَماتْ

فيخلقَ الحياة

والشُّهداءُ يرقدونَ، يحلمونْ

ويحملونَ القدسَ في أرواحِهِمْ

يُرفرفونَ فوقَ هذي الأرض فجرًا يقرؤونَ الفاتحةْ

فينزلُ المسيحُ عن صليبِهِ ليمسحَ الجروحَ والعذابْ

وينزلُ الرَّسولُ من سمائهِ فيطلعَ النّهارُ من غيابْ

ويحلمُ الشَّهيدُ في الترابْ

أنّهُ وردةٌ تغيب في الضَّبابِ

حيناً كي تَعودْ، تجدّدُ العهودْ

فهذهِ الأرضُ استوتْ بينَ الصُمودِ والوعودْ

يفاوضون الوقتَ كي يأتي بميعادٍ جديدْ

ولا جديدَ تحت شمسِ القدسِ، لا جديدْ

سوى صمودِ الأرضِ رغم وطأةِ التاريخِ

رغمَ ما يقولُ النَصُّ عن ربِّ الجنودْ

سنكتبُ الأسماءَ فوقِ كلِّ بابْ

يبوسُ أورساليمْ ايلياءُ بيتُ المقدسِ المنشودْ

مدينةُ الإسراءِ والمعراجْ

قيامةُ المسيحِ

أرضُ أصداءِ الصُّمودْ

فلا جدارٌ أو حدودْ

تُضيّقُ المكانْ

تُضيعُ الزَّمانَ والوجودْ

القدسُ تبقى القدسُ

أينما تقنطرتْ بوابةُ السّماءِ

من دماءِ الشُّهداءِ في محافلِ الشُّهودْ

نسميَّ الأبوابَ أسماءً جديدةْ

ولا تظلُّ سوى أسمائنا تحتَ سمائنا

بابُ الخليلِ والجليلْ

بابُ دمشقٍ والكنانةْ

بابُ المغاربةْ

بابُ جنودِنا المحاربةْ

بابُ الجزيرةْ والعراقْ

وبابُ من عانقَ قدسَهُ بدمعِهِ المُراقْ

على اسمهِ نكتبُ بالدماءِ

قدسنا أمانةُ الأعناقْ

يا شهداءنا رجوعُنا اقتربْ

بابٌ أخيرٌ بانتظاركمْ

بابُ فلسطينَ العرب

obeikandl.com

يظهر الشاعر مهنا وهو من شعراء الوطن الذين تركوا صبغة خاصة بإبداعاتهم، والذي يكتوي من غربة داخل وطنه مما أثار في حروفه هذا الحضور في قدسنا بل لم يمنعه ذلك من أن يخاطب عاصمة دولته وشهداءها فالقدس كما يراها الشاعر هي من صنعت الأموات ومن أكدت على معنى الصمود حينما كانوا يقاتلون لأجلها وهي من دفعت الأحياء لتذوق معنى الحياة. كل هذا لأجل كسر القيود وزرع الأمل في النفوس. وهنا يوجه الشاعر خطابا إلى الشهداء داعيا إلى أن يطهروا الأحياء من دمائهم إشارة صريحة منه عن تخاذل الكثير من العرب والعالم عن الدفاع عن القدس وفلسطين فالشهداء بنظره هم المقدسون وهم من يخلقون من دمائهم الحياة للأحياء وكل هذا لأجل القدس ونلحظ بأن الشاعر يرفض المفاوضات مع العدو ويراها مضيعة للوقت فلا جديد في المدينة إلا نور الشهداء وصمود المدينة ويذكرنا الشاعر بتاريخ القدس الأثري والديني حتى لا ننسى ويرسل للشهداء بباقة أمل بقرب العودة فلولاهم ما كان لأحد أن ولو بمجرد الحلم أن يعود لأرضه ووطنه.

***

وهذا الشاعر العراقي علاء الأديب وهو من أبرز شعراء العراق المعاصرين يقول:

في سبيل الأمنيات

من وحي أبطال ثورة الحجارة

إلى رفاق الحرف في فلسطين الحبيبة.

يا رفاقي..

يا رفاق الأمنيات..

للأماني.. بابها النائي ودرب..

ملأته العقبات.

لو ركبنا كل صعب..

وتجدينا جسام النائبات..

وسلكنا ذلك الدرب فأنّا

سوف نرقى من حياة لحياة

يرى الشاعر أن الوصول للأمنيات لا بد له من عمل دؤوب، فيخاطب الشاعر إخوته في فلسطين، ويطلب منهم العمل المتواصل جنبا إلى جنب مع أخوتهم العراقيين، من أجل تحرير القدس، فالطريق إلى التحرير مليء بالعقبات والصعاب، ولكن هذه الصعاب تروض ويتم تخطيها بالجد والعمل، فالأماني وحدها لا تكفي، فيجب أن لا ننتظر من أحد خلاصنا، فلا يحس بمصابنا إلا نحن .

يا رفاقي ليست الأحلام درب المعجزات

لا ولا الأقلام تكفي..

وبليغ الكلمات

دونما الأيمان أنّا..

سوف نمضي بخطانا..

فوق هام الأزمات

دونما الأيمان أنّا..

سوف نرقى من حياة لحياة

سيصير الحلم أفيون همم

وكذوبا سوف يضحي بين أيدينا القلم

وهراء ستصير الكلمات

رغم أن الأماني والأشعار لا تجدي نفعا في مصابنا، إلا أن الشاعر يدعونا للتمني ويعتبره محفزا للعمل الدؤوب، فيشبه الحلم بتحرير الأرض بالأفيون، ولكن الأفيون الحقيقي يعطي متعاطيه طاقة سلبية، إلا أن أفيون الكلمات يعطي طاقة إيجابية من شموخ الهمم والعمل والسعي.

يا رفاقي

ليس ما نرجوه أمرا مستحيلا

رغم أنّ الدرب للمجد عصيب وطويل

رغم أن الليل داج والرياح..

كذئاب البرّ تعوي في البطاحْ

سوف نمضي..

ولأن الريح لن تقوى على

كسر جناح لعظيم..

شاء أن يمشي على درب الكفاح

فدجى الليل سيمحوه الصباح

إن تحرير الأرض ليس أمرا مستحيلا، فإن الطريق طويل ومليء بالعقبات، والليل حالك، إلا أن هذه العقبات ستذلل بأيدي المرابطين على الكفاح، فيأتي الصباح مفعما بالأمل، وتتحرر الأرض من الظلم والاستعمار .

يا رفاقي..

ربما تدمى خطانا..

فوق درب الأمنيات

ربما تقسو علينا الأزمات

غير أنّا سنداوي بالجراحات الجراح

وسنمضي..

نقهر الليل.. وإصرار الرياح

obeikandl.com

طريق التحرر يعرضنا للجراحات، فإن هذه الجراحات لن تكسر عزيمة المجاهد، فإنه يداوي جراحه براحتيه الطاهرة، ويبقى المجاهد في مسيرة النضال حتى دحر الاحتلال وظلماته ليأتي الصباح الجميل، ويهنأ الناس بالعيش الكريم .

يا رفاقي..

ربّما نقتل يوما..

قبل أن نقرع باب الأمنيات

ربما نصبح بعض الذكريات

فعلى الدرب ذئاب

عندها القتل مباح

فسيمضي

يهتدي الجيل بآثار خطانا

يحمل الأيمان للمجد سلاح

فوق درب الأمنيات

وسنرقى

من حياة لحياة

obeikandl.com

قد نموت في طريق التحرر، لأن هذه الطريق محاصرة بالذئاب التي تفترس كل مدافع، لكن علينا أن نمضي في هذه الطريق مهما حملت من متاعب، ليواصل أبناؤنا بعدنا مسيرة النضال حتى التحرير، فسلاحنا الأمثل يكمن في الإصرار على الهدف ومواصلة الكفاح.

نشرت في جريدة (الجمهورية) العراقية بعددها (6771) في 30/ آذار/ 1988وتم الاتصال بشاعرنا العراقي لتوثيق قصيدته ببحثنا في 2/ 7/ 2013.

والشاعر علاء الأديب هنا يحمل هم وطنين لا وطن، فالعراق وفلسطين توأمان في الوجع ويتمنى الشاعر أن تتحد الأماني وأن تتحقق الأحلام فيتمنى كذلك أن نكون يدا واحدة لأن الريح لا تكسر هامة الأقوياء المتحدين ويدعو كذلك إلى الإيمان بقوة الأحلام فالظلام لا بد وأن يبدده فجر مشرق.

***

وهذه متألقة أخرى هي الشاعرة اللبنانية ندى بجاني تقول في نص لها حمل عنوان "مدينة الولاء" وكان خصص للبحث وتم رصده في 8/ 6/ 2013 من خلال لقاء خاص:

سَطّري يا قُدسُ أسطُرَ الخُلودِ

مَدينَةَ الوَلاءِ رايةَ النَّصرِ مِهرَجانَ الوجود

وَاحفِري في الدَّهرِ عَرشًا يَبقى أبَدَ الدَّهرِ

بعِشقِ الشَّهادَةِ مُجاهِرًا يَجوبُ كُلَّ الحُدودِ

رايَةُ النَّصر نَجمَةُ الدَّهر لا تَنطَوي

كُلَّ شُقٍّ فيكِ مَظهَرٌ للعَسجَدِ

وَإشاراتٌ تُرَفرِفُ بالمَجدِ

مَضَمَّخَةً بدِماءٍ تَعَتَّقَت فيها دِماءُ الجُدودِ

في عنوان القصيدة إيحاء لأهمية القدس الدينية (مدينة الولاء) فتقر الشاعرة بأن القدس تسلب لنفسها الولاء من عيون الناظرين، فتتجلى فيها رؤى العشق الآلهي، وعشق الشهادة، فتقف على أبواب القدس مسلمة الروح إلى رب العزة، وتسجل اسمها مجاهدة تدافع عن المقدسات، تبحث عن مجد التحرر، فهي ترفض بقاء القدس مستعمرة إسرائيلية .

كَتَبَ الدَّهرُ وَأنتِ نَبضُهُ وَعِزّهُ

وَأنتِ سَرمَديَّةُ المقامِ ما تَحجبُكِ عَظمَةُ السُّدودِ

فَاسطَعي يا جَنّةَ الأرضِ وَأقيمي للفِداءِ عُرسًا

يُحاكي عَرائِسَ السَّماءِ وَمَلائِكَةَ الصُّمودِ

طوفي بقُربانِ الشَّهيدِ وَاذرِفي المَجدَ وَالوَجدَ في مَنابتِ الإباءِ المَقصودِ

وَارشِفي جَوهرَ المَناهِلِ وَاستَقيَ شُموخَ الطّرودِ

فَالنَّصرُ صَلّى في سُموِّ رُؤاكِ وَزَغرَداتِ نسائِكِ

وَابتَهَلَ رَصاصُ الأفراحِ طَوعًا

فَتَباهَت بالبارودِ جَنائِنُكِ

تظهر الشاعرة في هذا المقطع أثر الجهاد وأهميته، وتستطلع المستقبل الذي تصبح فيه القدس حرة طليقة، فترسم عرسا للتحرر تتغنى فيه القدس بشهدائها، وتؤكد أن الملائكة في السماء تحتفل بتحرير القدس، فالنساء تزغرد والرصاص يسجل أسمى آيات الفرحة بعد التحرر .

يبدو لي أن الشاعرة تصرخ بعنف في وجه المحتل وتدعو القدس إلى الثبات فهي من تزين بلاد العرب وهي عروس البلاد فالشهداء الذين يضحون بأرواحهم لأجل المدينة يبنون للقدس مجدا أخرا وصارت المدينة على موعد مع النصر إلى أخر النص..

***

وفي قصيدة الشاعر الفلسطيني الشاب أحمد أيوب في لقاء توثيقي مباشر خاص بالبحث 12/ 7/ 2013، يقول تحت عنوانها "إيلياء الروح":

إشراقةٌ بريــاض الحــسن باكيــةٌ تلـك الـديار بعـين الـشوقِ حـوراءُ

كانـت تلامـس أنفاسـاً لهـا سـكبت غــرُّ المــشاعر في الــضراءِ سراءُ

تبني من العشق ترتيلاً لمن رغبوا أن يلتقـوا بنعـيم الوجـدِ حـسناءُ

فاصقل سيوفك لا تخشى بها صنماً إن الرجــال لنــور الفجــر قــرآءُ

يهتـز بـالبوح مـن رسـموا لهـا قـدرا لا ينثنـــي قلَـــمٌ مـــسته دهمـــاءُ

يبدأ الشاعر قصيدته بمكانة القدس الرفيعة في قلب كل عربي ومسلم، لما لها من مكانة عالية في السماء، فيشبه الشاعر القدس بالفتاة الحسناء التي وقعت في الأسر، وتنتظر من فارسها القوي الشجاع خلاصها .

كن أنت يا وجعاً في نايها لهفاً صوتاً يزلزل في أنفاسها الداءُ

عانق بشوقك لا تأسى لمن تركوا طهر الرياض كمن صاغته لأواءُ

أين المكبر في ما يصدحون به سلواد دثرها بالقهر غوغاءُ

ياخيل أوسٍ أصحراء الهوى نضبت أم نالها بزئير البؤسِ إقصاءُ

مسرى الحبيب رياضٌ تشتهي قُبلاً من قوس عاشقها تهواه زهراءُ

يرنو البراق وفي المسرى لنا ودقٌ صلى الحبيب وقد لباه إسراءُ

معراج أحمد نحو الله صخرته تلك السماء بصدر القدس أصداءُ

يسم الشاعر أماكن بارزة في القدس، وشوق تلك الأماكن للتحرر، تذكيرا لنا بحاجتها إلينا، فعلينا أن نلبي نداء القدس، ها هو حي سلواد، وها هو المسجد الأقصى مسرى النبي، وها هي الصخرة المشرفة التي عرج منها سيدنا محمد إلى السماء، وحائط البراق، يستغيث من يجيب النداء.

في القدس تأوي دموع العشقِ لاهبةً تنعى غياباً يرى في الثأر صهباء

قد عانقت بجوار القتل بضعتها حيَّت شهيداً له في الفجرِ إطراء

شاعرنا أيوب من جيل الانتفاضتين فهو عايش وجع القدس وما زال يعاني فحرفه ثائر وكلامه عن القدس موجع فهو يدعو لحماية القدس بالجهاد بحد السيف فلا مجال أمامه غير السيف لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة فمعراج محمد ما زال يدنس كل حين وعيون العالم غافلة عما يحدث من تهويد وتهديد للمدينة إلى أخر النص.

***

أما الشاعر اليمني د. محمد الحالمي، وفي قصيدة له ألقيت في 17\11\2012 عبر إذاعة أثير الحرية من فلسطين بصوت المذيع الفلسطيني محمد سعيد يقول:

اليـــوم يُجلـــدُ بالمهانـــةِ شـــعبنا والقلـب ينـبضُ بـالجراحِ ويَنـزفُ

والـصوت يعلـو في المنـابر حـسرة وَيـشيحُ مـن وجـع الفـؤاد ويُتلـفُ

وتضج من وهـج الحـروف قـصيدتي وتُذيبُ شـعري والقـصائد أحـرفُ

لملمـتُ بعـضي عنـد كـل قـصيدةٍ لكننّـــي لهـــوى المـــآسي أُنـــسفُ

وأرى اللجـــوءَ إلى التبـــاكي حميـــةً فأبِيتُ في كنـفِ الـدموعِ وأعكِـفُ

يصور لنا الشاعر عظم المصيبة التي حلت بالقدس، فأصوات البكاء والنشيج تعلو، تستغيث ببني يعرب، أن يهبوا لنصرتها، فكتب الشاعر هذه القصيدة بحروف الألم الذي تعيشه القدس، وبحروف الأمل بالتحرر.

لا تأســـفي يـــا أمتـــي لـــضياعنا هذي دموعي من جراحكِ تـذرفُ

لم نـــدر هـــل نبكـــي عـــلى إخواننـــا أو للـسلامِ نـرى المجـالس تهتـفُ

إنَّــا عــلى الأوهــام نبنــي قولنــا ورؤى الحقيقــة ريحَــهُ لا تَعــصفُ

مــا زال في وطنــي الكــلام مُقيــداً وكذا السكوت لمن يُعربدُ أَنْصَفُ

يبين الشاعر في هذه الأبيات مدى التخاذل الذي أبداه حكام العروبة، والخنوع والذل، فالشعوب لا تقوى على فعل شيء، لأن سطوة الحاكم وجبروته يكسر كل قلم حرّ أبيّ، فإنهم يبنون قصورا من الأوهام والآمال.

اليــوم يُجلــدُ بالمهانــةِ شــعبنا والقلــب ينــبضُ بــالجراحِ ويَنــزفُ

عفــواً أيــا طفــلَ الحجــارة إننــي مــا زلــتُ ألتحفُ الحياء وأرجفُ

هــل تقبــل الأعــذار خــير جوابنــا؟ عجــزت ضــمائرنا فليتــكَ تعــرفُ

هــذي بــلادي يــا بُنــي جريحــةٌ تــسبى ويــضَمرُ عودهــا ويُقــصَّفُ

لا تبــكِ يــا طفــلَ الحجــارة إننــا جُثــثٌ، وشــعِريْ في المدى يتــأففُ

يقدم الشاعر اعتذارا من الأبطال الصغار، أطفال الحجارة الأبطال، الذين سجلوا في صحيفة القدس الشجاعة، ويقول له أن بني العرب لا يجرؤوا على غير الاعتذار، فهو الأمر الوحيد الذي ظل متاحا تجاه القدس الشريف.

اليــوم يُجلــدُ بالمهانــةِ شــعبنا والقلــب ينــبضُ بــالجراحِ ويَنــزفُ

اليــوم أنــتَ ولا ســواكَ قذيفــة هَــزّتْ وكــاد البرق منهــا يخطــفُ

والغاصــب المحتــل ينــصب جرمــه ويعــود في وجــه العروبــة يقــصفُ

أنــسيتَ أنــكَ يــا عــدو منحتــه عزمـاً وصـار عـلى المـدافعِ يـألفُ

أنــسيتَ أنــكَ بالقــذائف جئتــه وســلبتَ منــه بــراءة لا توصــفُ

هـا قـد صـنعتُ مـن الـذخائر أمـةً تُرمـى إلى بطـن الحـروب وتُقـذفُ

لــن يحتويهــا الخــوف بعــد شــجاعةٍ إلا إلى نـــصرٍ يـــدكُّ ويجـــرفُ

إن الطفل الفلسطيني صاحب الجرأة والشجاعة، يستمد جرأته من جبروت المحتل، فإن المحتل بلا إنسانيته، يعلم الأطفال الشجاعة، لذلك أنت يا طفل الحجارة أصبحت معلما، ترسم للشعوب خطاها .

***

شاعر عربي آخر يكتوي بفراق العرب وضياعهم لفلسطين ويتساءل عن السلام كيف يكون وما شكله في فلسطين ويعاتب العرب على خضوعهم واستكانتهم عن القدس فالكلام كما يقول صار مقيدا ولا حرية للتعبير ويرى بأن أطفال الحجارة هم وحدهم من يستحقون الحياة بلا منازع لأنهم هم وحدهم القادرون على حماية وطنهم من الضياع. في توثيق خاص بالبحث 11/ 7/ 2013.

شاعر فلسطين آخر يحمل وجعا جديدا وجع بيروت والشام والقدس معا ينطق بكلمات عاشقة للوطن الكبير ومخففة من معاناة الإنسان في كل مكان. شاعرنا يوسف كما ونلحظ في كتاباته هو ليس بشاعر وطن فحسب وإنما شاعر أمة لا يحمل هم فلسطين بل هم كل الشعوب المظلومة من خلال حرفه. إنه الشاعر يوسف أحمد أبو ريدة.

بـــــيروت مرفـــــأ حبنـــــا والقـــــدس فـــــردوس الهنـــــا

والـــــشامُ شـــــمعة حُلمِنـــــا وبهـــــا الـــــتجلّي والمنـــــى

لا غـــــروَ إن طـــــار الفـــــؤاد إليـــــكِ وارتـــــشفَ الـــــسّنا

فالنـــــــــصر آتٍ في غـــــــدٍ والكـــــونُ يـــــضحكُ والـــــدنا

وتهلـــــــــلي وتـــــــــدللي يـــــا نـــــبض قلبـــــي يـــــا أنـــــا

فلقـــــــد قرأتُـــــــك أمّـــــــةً ونظمـــــــتُ حبّـــــك سوســـــنا

يربط الشاعر بين ثلاث عواصم، إنها القدس، بيروت، ودمشق، فهي محاور الوجع العرب، ومنبع الثورات العربية، فهو لا يبالغ عندما يعشق تلك العواصم، لأنها سجلت أسمى آيات المجد والكفاح، ويبني الشاعر الأمل بالتحرر " فالنصر آتٍ آتٍ" ويتوحد الشاعر مع المدينة المقدسة، لأن قلبه معلقا معها، وبخلاصها خلاصه.

***

أشار الشاعر العراقي مكي نزال في قصيدة خاصة بالبحث وثقت في15/ 6/ 2013 قدس وبغداد إلى أنّ القدس أخت بغداد وما حصل لهما كان ضمن خطة متكاملة لاحتلال عواصم الأمة ولا يمكن الفصل بين القدس وبغداد من منظور تكامل حواضر الأمة الكبرى.

سمعت صرخة قدس الأرض قد وصلت بغـدادَ فاسـتُلّت الأسـياف في عجَـلِ

في هذا البيت يستذكر الشاعر استجابة بغداد لنداء القدس وكيف أن بغداد استلت أسيافها ولم تبخل ولم تتردد، وفي النهاية فإن من احتلوا بغداد يعلمون أنها ناصرة القدس الكبرى حين يأتي يوم تحريره.

يؤكد الشاعر على وحدة المصاب بين القدس وبغداد، فما جرى لبغداد ليس إلا لأنها لم تحد عن طريق الدفاع عن القدس، فأهل العراق وأهل فلسطين، أهل المجد منذ قديم الأزل، فيطلب الشاعر بالسجود على عتبات القدس، أو على أعتاب بغداد، لأنهما في بوتقة العز واحد.

أسجد ببغداد أو في القدس وامتثلِ هما لكلّ شريفٍ قبلة الأملِ

وجهٌ لمكة لا يكفي توجهه هنا الرشاد فلا تشطط ولا تملِ

لمن يريد الصواب فعليه بالقدس وبغداد، فالحقائق تتربع في بغداد وفي القدس واضحة، فلا يوجد مجال للشك والريب، فبغداد دار المكارم، والقدس دار الجهاد، كما أن الشاعر يؤكد على وحدة مشاعر العراقيين مع إخوانهم الفلسطينيين .

هنا الحقائق فاملأ كأس منتبهٍ لا خير فيما بدا للشك من علِ

نبضٌ لبغداد أو في القدس مكرمةٌ فكن كريمًا ولا تمعن بذا البخُلِ

سمعت صرخة قدس الأرض قد وصلت بغدادَ فاستُلّت الأسياف في عجَلِ

وانقضّ صقرٌ على صهيونَ أرعبهم لم ينتظر أن يبوح القولُ بالجُملِ

ستون عامًا مضت والقدس رازحةٌ، بقيدها، يا لهُ يا صاح من خلل!

القدس استغاثت حتى بح صوتها، فلم تجد من يسمعها سوى أسود العراق، يستلون سيوفهم، يقولوا لبيك قدساه.

أسجد ببغداد أو في القدس وامتثلِ أكاد أخفي بكفي الوجه من خجلي

كانــت إذا مــا تنــادى المــوت في دمهــا قالــت لبغــداد: وا أختــاه! لا تُطــلي

يعبر الشاعر عن أسفه وخجله من نداء القدس، فهي منذ ستين عاما تنادي وتستغيث، واه عرباه، واه مسلماه، وتخاطب بغداد وتوصيها بأن لا تطيل عليها فإنها تتألم كل يوم، لكن القدس تبكي على بغداد ؛لما أصابها من ذل وقتل وتشريد واقتتال داخلي، فالشر يتجمع في بغداد، ففي كل يوم قتلى وجرحى، ونساء ثكلى، وأطفال.

والآن تبكـــي عـــلى بغـــداد مُطرقـــةً كونـوا لهـا بعـدها في حومـة الوجـلِ؟!

ومـــن يـــصفّد شـــيطانًا يؤرّقهـــا بـصرخةٍ حـرةٍ في خطبهـا الجلـل؟!

تجمّــع الــشرُّ- كــلُّ الــشرِّ- ضــطربًا فأين جمع الندى؟ هل غاب في زحلِ؟!

تلك العزيزة والأخرى هوت وذوت هبــوا لنــصرتها في القــول والعمــلِ

يأمر الشاعر أهل العروبة ليفيقوا من سباتهم الذي طال، ويذودون عن قدس، وعن بغداد، فإنها الأخرى سقطت في يد المحتل، بأيدي الطائفية.

يــا مــن تمــزّق ســتر الليــل إذ طلعــت شموسـكم وأضـاء الأفـق بالـشعلِ

فالشمس في القدس مذ شيدت حضارتها هـــي المنـــارةُ في أيامهـــا الأُوَلِ

والآن مغلولـــة في الأسر، مطرقـــةٌ أصـــابها غاشـــم الطغيـــان بالـــشللِ

تحــدثوا للــورى عــن حــسن طلعتهــا لا تهجروهـــا بـــذلّ الأسر كالطلـــل

يعود الشاعر إلى التركيز على مكانة القدس وأهميتها، وضرورة الدفاع عنها، فهي قدس الأقداس، ويشبهها بمنارة تضيء السماء، إلا أنها أصبحت مشلولة وعاجزة، لأن الاستعمار قيدها وخنق أنفاسها، ويأمر أن لا تهجر القدس هكذا .

وكما قلت بأن القدس وبغداد توأمان في الوجع ها هو شاعرنا مكي نزال يطالعنا بآماله في تحقيق السلام لتلك المدينتين أويبدو بأن الشاعر من عشاق القدس كما هو من عشاق بغداد فمصاب بغداد هو مصاب القدس فلذلك يدعو للوحدة ولم الجراح من أجل وحدة عربية هذه المدينة القدس التي تستحق أن نضحي لأجلها وكما قال.

وثقت للبحث من خلال اتصال بالشاعر عبر التواصل الاجتماعي في 1/ 8/ 2013م. نشرت في جريدة الساعة العراقية حزيران (2006) بحسب تأكيد الشاعر لنا وبعدة مواقع أخرى.

***

وفي محاورة مع الباحثة، تم نشر قصيدة للشاعر الفلسطيني المغترب في مخيمات لبنان أحمد الشيخ بعدة مواقع الكترونية، وفي دنيا الوطن في 6/ 9/ 2012 موقع فلسطيني، والتي حملت عنوان "اسمك" جاء فيها.

وبما أن الشاعر يعاني اللجوء، فإن قصيدته تتسم بالشوق والحنين للعودة إلى الوطن، فاسم القدس يسحبه إلى وطنه ومسقط رأسه، وهدوء العاصفة لا يكون إلا بالعودة إلى القدس، فالجبال والسهول الأودية تبكي فراق أصحابها، وتنظر عودتهم بفارغ الصبر.

اسمُكْ يَشُدّنّي

يرْحَلُ بي

في أعْماقِ المَدينَةْ

يُضْفي على مَلامِحِي

بِهُدوءِ العاصِفَةِ

و بِسَكينَةْ

آلامٌ تخلّتْ عنِ الدّروبِ

عنِ الجِبالِ و الرّوابي

الباكِيَةِ الحزينَةْ

كانَتْ تُقارِعُ فرحاً

في شَهْقَةٍ باديةٍ

يسْتَلْهِمُ الحنينَ

يا أنّةَ الوَجَعِ

في سِفْرِ الحياةِ

المُبْحِرِ معْ كُلّ سَفينَةْ

في ضَمَّةِ شوقٍ

تَنْتَظِرُ دفئاً و همْساً

obeikandl.com

يُطارِدُ الأنينَ

أحلامُكِ ماضِيَةٌ

تزْرَعُ الحقولَ بالفلّ

يُغازِلُ الياسَمينَ

لنْ يُطْبِقَ اللّيْلُ

على جَفْنَيْكِ

لنْ يُحصي السّنينَ

معْ روضِ الفجرِ الضّاحِكِ

ينتَظِرُ قدومَ

البسْمَةِ السّجينَةْ

كيْ ينثُرَ القُبَلَ

معْ كلّ تغريدَةٍ مرجوّةٍ

في الرّوحِ دفينَةْ

obeikandl.com

يناجي الشاعر مدينة القدس بشوق الصبابة، ويطلب منها أن تبقى صامدة صابرة فالأسر لن يدوم، ولا بد من فرج، ويترجى لو يكون قريب، فشيبها وشبانها ينتظرون العودة بفارغ الصبر.

يا قُدْسُ يا عروسُ الدّنيا

يا قاطِنَةَ القلوبِ

يا قِبْلَةَ المُجاهِدينَ

تَبْقينَ في صَرْخةِ الوِلادةِ

في رَحِمِ المَخاضِ

عُرْوَةُ الصّبْرِ المُتينّة

الشاعر أحمد الشيخ عشق القدس من قلبه وتخيل له أنها عروس الدنيا حيث جعل منها محبوبته الجميلة، ولاسمها وقع على نفسه وقلبه ويبادلها الأماني بقوله بأن الليل لن يطول وهذا ما يرسله كافة الشعراء للقدس بأن الظلم والاحتلال مهما طال سيأتي الفجر مؤكدا بأن النصر الذي ستحظى به القدس سوف ينسيها مر الأيام والسنين الماضيات ويرى شاعرنا بأن القدس تمر في مرحلة مخاض عسير وطويل ولكن القادم لها أجمل.

(5/ 9/ 2012)

***

كلمات والباحثة إيمان مصاروة في مقتطف من قصيدتها "سبع قبلات":

سبعُ قبلاتٍ لثمْتَ أنفاسي

obeikandi.com

وأسدَلْتَ عليْها لباس الكهانْ

رسمْتَ لها سبعة أبوابِ

أسطورة في خيالاتي

أضحَتْ تراقصني فوقَ النّجومْ

وتهمسُ لقناديلِ روحي

على جدارية الغفرانْ...

الباحثة والشاعرة إيمان مصاروة تهدي القدس القبل على أبوابها السبعة، لتبين مدى العشق الذي يسكن قلبها، فتتراقص نشوتها لحرية عروس فلسطين، للمسجد والكنيسة، فالعلاقة التي تربط الشاعرة بمدينتها قوية فوق التصور، فتحمل حلم التحرر للأجيال، وتراهن بأن من تبقى في القدس مرابطين سيبقون على العهد، لن يتركوا القدس مهما جرى، ففيها باقون باقون.

طوقتْ ملاذ مدينتي كل الأسوار

سبع همسات سبحت

باسمِ الباقينْ

في قوافي الغيبِ

ولهاثِ تغريدِ البلابلِ

obeikandl.com

وقلوبِ العشّاقْ

***

وهذا الشاعر العربي الناقد اليمني محمد عبد القدوس الوزير يبرهن لنا أهمية القدس في الأدب العربي من خلال رائعته "يوم القدس" والتي وثقت للبحث من خلال لقاء خاص به في 30/ 6/ 2013، يقول:

قيْلَ همْ ثُلَّةٌ تُسمَّى يهوْدُ

تتحدَّى والقُدْسُ هلْكى تجُوْدُ

ما سواها للمكْرِ تمْضيْ عناداً

تتعدَّى والقومُ صرْعى رُقوْدُ

منذ ستين رُبما أوهي فيها

(وعْدُ بلفوْر) ويلَهُ والكَؤوْدُ

يرسم الشاعر لوحة القدس الحزينة، بعد أن سيطر عليها اليهود، فالقدس صابرة صامدة، تتحمل العذاب وتمضي، ويصور العرب والمسلمين، الذين لم يعد لهم حول ولا قوة، بعد أن صرعوا بأيدي الفرقة والتفكك، فالقدس تبكي منذ أن قطع وعد بلفور المشؤوم .

أرْضُ مسرى الرسوْلِ طه تُناديْ

نخوة العُرْبِ فانْهضُوا يا أسوْدُ

ما تقولون للورى وهْيَ لَمَّا

تبْعثِ النَّصْرَ أينَ منَّا الشُّهوْدُ

قِلَّةٌ تغْصبُ البلادَ وفيها

معْشرٌ يدَّعيْ وفينا يقُوْدُ

يستنهض الشاعر الأمة النائمة، ليهبوا لتحرير القدس، ويبين لهم بأن اليهود أقلية في مقابل أبناء العروبة، فتحرير القدس أمر محقق لو أن العرب صحوا من غفوتهم، التي طالت، فالعرب لا ينقصهم سوى قوة العزيمة والإرادة ؛ لتحرير أولى القبلتين وثاني المسجدين .

أيها العارُ منْ زمانٍ تردَّى

فغدونا نُقادُ . أين الأسوْدُ

هانَ منْ يطلُبُ الحياةَ بذُلٍ

منْ أحبَّ الحياة فيها بليْدُ

أينَ منْ بايعُوا الإلهَ بصدْقٍ

لا تتُوهوا هذا الجهادُ الرَّشيْدُ

وجِّهُوا الجُهْدَ كيْ تعودوا كراماً

الشاعر يبين العار الذي رسخه العرب في تخليهم عن القدس، ويتساءل عن أبطال العروبة، أين هم؟ القدس تنادي: هل يسمعون النداء؟ فالشاعر يعد من يطلب الحياة بلا كرامة أن يهنوا ويعيشون بلا كرامة لأنهم تركوا الجهاد.

يا فلسطينُ هاكِ جئنا نذودُ

قدْ وعينا الدروسَ ما عادَ فينا

غافلٌ عن هواك. جاءَ الحُشُوْدُ

نردمُ الجذْرَ نهزمُ العارَ حتى

ليسَ تبقى على الحياة اليَهُودُ

وعْدُ قرْآننا الكريمِ فهيَّا

منْ يُلبِّي النِّداءَ فهْو الشَّهيدُ

جاءَ زحْفُ الأباةِ منْ كلِّ فجٍ

وتولَّى الطُّغاةُ. لا لنْ يعودوا

يوم ذكْراكَ أيها القُدْسُ حلَّتْ

فيه نعْدوْ على العِدَى- لا نحيْدُ

ما تأمركْتُ أوْ تصهْينْتُ يوماً

أوْ تخاذلتُ.. أمَّتيْ منْ تسُوْدُ

يرسم الشاعر لنا أملا جديدا للعروبة، فيرى الشاعر أبناء العروبة يعودون إلى رشدهم، ويجهزوا للقدس الجيوش، وتأتي الجيوش من كل فج، يرسم الشاعر أبناء العروبة بعد صحوتهم من ذلك السبات العميق، فيهبوا موحدين، فتمسي المدينة حرة، وترفع على مساجدها وكنائسها رايات العروبة.

والقرودُ الملاعنينَ عليها

إنَّهمْ في هدى الكتابِ القُرودُ

جاءَ وعْدُ الإلهِ والبأسُ وافى

زمْرةَ الحقْدِ أما عليها حقُوْدُ

(كامْب ديفيد) والسلامُ المُسمَّى

منْ ألاعيْبِ ساسةٍ قدْ أبيْدوا

يدرك الشاعر الألعوبة السياسية التي تحاك على فلسطين، ويؤكد أنه لا سلام مع من وصفهم القرآن بالقردة والخنازير، فما كامب ديفيد سوى ألعوبة فلا سلام مع عدو استباح المقدسات، لا سلام مع المحتل.

أيها القُدْسُ أنَّ يوماً بألفٍ

ما سوى الصَّبْرِ قدْ أتاكَ الصُّمودُ

حيٍّ شبْلاً فيْ ساحة الحقِّ يدعُوْ

والشَّبابَ المُجيْبَ فيها العمُوْدُ

قدْ دنى الوعْدُ حصحص الحقُّ هذا

وعْدُ ميراثنا المُبينُ الأكيْدُ

ستون عاما وأكثر والقدس تكابد ويلات المحتل فوعد بلفور كما يقول الشاعر سبب المصيبة الكبرى في الظلم والاحتلال ورغم الظلم الواقع على المدينة إلا أن القدس قوية بإرادتها نحو التحرر ويدعو الشاعر الأمة العربية إلى الجهاد فالقدس تقاتل وحدها فالأمريكان والصهاينة عليها ومع ذلك لم تفلح في تهويد المدينة المقدسة. ويلوم شاعرنا هنا المفاوضات التي تجر الويلات على القضية الفلسطينية فهو يراها لا قيمة لها.

***

وأما الشاعر السوري وليد الرشيد الحراكي في قصيدته "القدس تنتظر" والتي كان نشرها بموقع الواحة الالكتروني وزودنا بها أثناء لقاء خاص مع الباحثة في 20/ 7/ 2013:

يا جبهةَ العِزِّ للتَّأريخِ تنتصِرُ أوتيتِ عَزمَ بلادٍ هدَّها الخَوَرُ

ها أنتِ ثانيةً تُحْيينَ رايَتَنَا وذي بنو عَرَبٍ، مَيْتٌ ومُحْتَضِرُ

كم تاجَرَتْ باسْمِكِ الأفْواهُ تلفظُهُ وفي الصُّدورِ قلوبُ الصَّمتِ تَستَتِرُ

للهِ درُّهُمُ الشُّجعانُ ما خَنَعوا ما نالَ منهم عدوُّ اللهِ أو نَفَروا

أصْـلَوا سَـعيرَ الفِـدا مـن جَمرِ مَوقِـدِهِم فعلَّمونـا بـذا الخُـسْرانِ مـا الظَّفَـرُ

اللهُ أكـــبرُ حـــينَ اختـــارَ غَزَّتَنـــا أرضَ الرِّبـاطِ دَلـيلًا لـلأُلى عَثَـروا

اللهُ أكـــبرُ قـــومي أمَّـــةً رَقَـــدَتْ بِحُلـمِ مَـاضٍ فـذا سَـعدٌ وذا عُمَـرُ

وذا صَـــلاح بعـــينِ المَجـــدِ يرْقُبُنـــا هـل يَقْتَـدي بِجُنـودِ الفَـتْحِ مُعْتَـبِرُ؟

وهـــل نَـــرى بِـــضياءِ الهَـــدْيِ بُغْيَتَنـــا وهـــل لِـــدُمَّلِنا بالـــسَّيفِ مُبْتَـــسِرُ؟

مـــن قاسِـــيونَ أطَـــلَّ الفَجْـــرُ مُرتَـــديًا بَـــشَائِرَ النَّـــصرِ تَرنـــو لَـــهُ قَطَـــرُ

وفِي الكِنَانـــةِ وعْـــدٌ هـــلَّ بَارِقُـــهُ يَـشُدُّ مِـنْ أزْرِ مَـنْ بـالأمْسِ مَـا عَـبروا

ومـــن رُبَـــى الحَـــرَمَينِ انْـــدَاحَ مُنْتَـــشِرًا صَـــوتُ الهَـــديرِ ودَأبُ الحَـــقِّ يَنتَـــشِرُ

مـــن تُـــونسَ انْطَلَقَـــتْ أرْتَـــالُ فزعتِهَـــا تقـــولُ : لا، لم نَعُـــد بالـــذل نـــصطَبِرُ

بورِكْـتِ غَـزَّةَ كـم أحْيَيْـتِ مـن رِمَـمٍ وكـــم عـــلى بَابِـــكِ الحَيْبَـــاتُ تَنْتَحِـــرُ

شُـــدِّي لَنـــا بِبحـــورِ النَّـــصرِ أشْرِعَـــةً واسْـتَعْجِلِي.. تِلـكَ قُـدسُ اللهِ تَنْتَظِـرُ

يحاول الشاعر في قصيدته أن يعيد أمجاد العرب الماضية بذكر أفعالهم العظيمة ولكنه في نفس الوقت يلوم عليهم البقاء على ما فعله صلاح وعمر وسعد، ويقول شاعرنا بأن القدس هي الأساس لاستقرار كافة البلدان العربية فالقدس هي أم القضية، وهي صاحبة الإرادة القوية فالنصر من عندك سيكون لتتحرر كافة البلدان.

فيما جاء الشاعر الفلسطيني إبراهيم الأعرج بقصيدته "ثوب الإباء"القدس" ليقول في القدس:

قـفْ عـلى أبـواب قُـدسٍ مـارداً إنّـكَ الـصّبُّ الـذي يهـوَى العَـرينْ

لم تَغـبْ عنـا ومُهجـاتِ القلـوبْ ذُبـت فيهـا بعـدما اشـتدّ الحَنـينْ

لا تلُـمْ أعطافَهـا وانـشُدْ لهـا لـو إذابتـك عَـذاباتُ الأنـين

لم يُـذِبْ هـولُ الـرّدَى أوصَـالَها فهْـيَ رَمـزٌ لـصُمودِ الأوَلـينْ

قـد تنقّـى طُهـرهُم تحـتَ الثّـرى قـدَمُ البَغـيِ تَـوارَتْ مـن سـنينْ

كـانَ سـلطانَ الهَـوى يـا قلبُـهُ عاشـقُ القُـدسِ الّتِـي لا تَـستكينْ

دامَ عـزّا فابنُهـا لا يرتَـدِي غـيرَ ثـوبٍ لكـرام الأكـرمين

دعوة واضحة وصريحة من الشاعر لكافة الناس للوقوف على أبواب القدس لأن القدس لك وأنت بها أولى أيها العربي ويؤكد الشاعر بأنه لم ينس القدس أحد فهي درة البلاد وهي المعشوقة التي لا يمكن لأحد أن ينساها فهي جوهرة الديار.

***

والشاعر الجزائري جمال الريميلي في لقاء خاص بنا حيث يخيل إلى المار على حروفه أنه يقتاد يومه من مكانة هذه المدينة التي تحمل طابع القدسية والشرعية الإبداعية لدى كل شاعر صاحب مبدأ وضمير حي. فالشاعر يبرق برسالة إلى القدس وما فيها، رسالة البقاء، فالقدس في قلبه وقلوب أخوانه خالدة، آلامها تؤلمه في صميمه، وحزنها يبكيه، في

كل لحظة طيفها في خياله يؤرقه، فحرقة نبضها تلهب الصدور، ويبارك الشاعر صمود القدس ومن فيها في وجه المعتد الآثم .

قضى القلب لحَمَامِكَ المَأسُورِ

فِي الأجْوَاءِ

لِمَقَامِكَ الأسْمَى

ولَسْعِ الدَّاءِ

لِمَعِينَكَ المُنْسَابِ

فِي أرْوَاحِنَا

لِصُمُودِكَ المَبْثُوثِ

قَيْدَ رَجَاءِ

لِبَهَائِكَ المَعْنَى

لِتَوْقِ نُفُوسِنَا

لِقَصِيدَةٍ

لَكَ أبْرَقَتْ بِنِدَاءِ

يَهْفُو

obeikandl.com

بِكَ الحَرْفُ المُؤَجَّلُ حَائِرًا

وَيَصُوغُكَ المَعْنَى الذِي

فِي المَاءِ

تحتل القدس مكانة لا تضاهى في نفس الشاعر وروحه، فهي الأمل والعمل، فيصرح لها بلغة شاعرية راقية، بالحب والحنان، فهي ملهمة الشاعر، ليرسم خطى التحرر والتحرير، فلهيب شهاب الأمل يختلج حشاه .

وَلأَنَّكَ الجَدْوَى التِي

فِي حُلْمِنَا

يَتفَتَّقُ الإِفْضَاءُ

فِي الإِفْضَاءِ

وَلأَنَّكَ المُنْثَالُ

فِي رَمَقِ الهَوَى

مَا زَالَ بَرْقُكَ

ثَائِرًا بِسَمَاءِ

للصمود ألف حكاية وحكاية، في كل دقيقة تسطّر القدس نضالات وجهاد، ألف اعتداء للصهاينة مس جرح القدس، وفي كل اعتداء عليها يدمى قلب الشاعر من جراح، فجرح القدس أدمى قلب الشاعر وقلوب الشرفاء من أبناء العروبة، فيشعر الشاعر بخيبة أمل تتبدد هذه الخيبة ببريق الأمل اللامع في سماء الوطن المحتل ليلة الإسراء، هذا الشهاب يعيد البسمة للقلوب.

مَازِلْتَ فِي البَسَمَاتِ

تُدْنِي وَرْدَهَا

إذ مَا أطَلَّتْ

لَيْلَة الإسْرَاءِ

مَا زِلْتَ

فِي أقْصَى القُلُوبِ

مَنَارَهَا

وَبِكَ الحَنَايَا

أزْهَرَتْ بِبَهَاءِ

obeikandl.com

تسيطر على الشاعر عاطفة القدس الملتهبة حبا وعشقا وحنانا، فهي مشكاة النور التي تضيء سماء الشاعر، لتهديه إلى الطريق القويم، كي لا يتخبط فيها خبط عشواء، ويتعثر في عثرات ركام التخلف والتبعية، والفساد.

يَا عِشْقَنَا الأَبَدَيَّ

يَا مِشْكَاتَنَا

يَا سَامِقًا فِينَا

كَمَا الجَوْزَاءِ

يزين الشاعر قصيدته بسنا القدس ونورها، ويعطرها من شذى القدس الندي، فالقدس نبع الحنان، فهي أم العروبة وعروس الوطن العربي، فرائحة القدس شهدا يزين القصيدة في جميع أرجائها.

إِنَّا نُرِيدُكَ

قِبْلَةً

لِلمُشْتَهَى

إذ كُنْتَ ثانِيهَا

وَرَمْزَ سَنَاءِ

إِنَّا نُرِيدُكَ

للقَوَافِي عِطْرَهَا

ونُرِيدُكَ الإِرْوَاءَ

فِي الإِرْوَاءِ

يختتم الشاعر قصيدته بوعده للقدس بأن تظل القدس خالدة في قلبه وقلوب إخوته، فهي نبض قلبه، فسر وجوده بوجودها، فعزه من عزها، وسيبقى ألمه ما دام في قلبها أمل.

سَتَظَلُّ أَقْصَى القَلْبِ

سِرًّا خَالِدًا

وَتَظَلُّ رَغْمَ الرُّغْمِ

فِي خُيَلاءِ

إصرار من الشاعر على أن تبقى القدس هي الأقوى فالقدس برأيه هي السر الخالد الذي لا يفنى لمكانة القدس الدينية فهي مسرى الرسول ومعراجه إلى السماء فلا غرابة أن تكون هي من أقدس بقاع الأرض فلا يريد الشاعر من مدينته إلا أن تكون قوية مدافعة عن نفسها وبنيها.

***

أما الشاعر الأردني، ابن مدينة مادبا، سعيد يعقوب يقول في قصيدته " القدس":[89]

[89] قصيدة القدس، ديوان قسمات عربية، ص35، الصادر عن دار الينابيع بعمان عام 2011.

obeikandl.com

قَـدَرُ الكَبـيرِ بَـأنْ يَظـلَّ كَبـيرا وَيَـرى العَسيرَ عَـلى يَدَيْـهِ يَـسيرا

وَيَـدوسَ لِلْهَـدَفِ النَّبيـلِ فدَافِـداً وَيَـشُقَّ لِلأمَـلِ البَعيـدِ صُـخُورا

وَتَزيـــدَهُ الآلامُ عَزْمَـــاً وَالأذى بَأسَـــاً وَيَغْنَـــى رِقَّـــةً وَشُـــعُورا

ذَهَـبٌ عَـلى النّـيرانِ زادَ بريقُـهُ وَالنَّـارُ تُبْـدي الجَـوْهَرَ المَـسْتُورا

أَلَمُ الجِـــراحِ يُثـــيرُ فيـــهِ إبَـــاءَهُ كَـــمْ مِـــنْ إبَـــاءٍ بـــالجراحِ أُثـــيرا

وَ(القُدْسُ) مَا زَادَتْ بِرَغْمِ كُرُوبِهَا إلا عَـنِ الـضَّعْفِ المُهـينِ نُفُـورا

وَجْـــهٌ يَمُـــوجُ قَدَاسَـــةً وَمَحَبَّـــةً وَفَـــمٌ يَفـيضُ طَهَـارَةً وَعَبـيرا

يَا (قُدْسُ) يَا مَهْدَ الرِّسَالاتِ التي كانَـتْ شُـعَاعَاً يَقْهَـرُ الـدَّيْجُورا

خَصَّتْكِ بالحُبِّ السَّماءُ وَمَنْ تُرَى إلاكِ كـانَ بـمَا خُصِـصْتِ جَـديرا

فعَلى ثَـرَاكِ الطُّهْـرِ كَـمْ مِـنْ شِرْعَـةٍ أَهْـدَتْ لأعْمَـى المُقْلتَـيْنِ النُّـورا

جَـاءَتْ تُبَـشِّرُ بالتَّسامُحِ وَالهُـدَى وَعَـلا بهَـا صَـوْتُ الهُـدَاةِ جَهـيرا

وَتُحَطِّـمُ الظلْـمَ البَغـيضَ بِعَـدْلِهَا وَتُزيـلُ مِـنْ دُنْيـا النُّفُـوسِ شُرُورا

وَعَلى رُبَـاكِ الشُّمِّ كَـمْ مِـنْ مَهْـبِطٍ لِلْـوَحْي يَهْتِـكُ لِلظـلامِ سُـتُورا

يتحدث الشاعر عن الثائر العربي الفلسطيني، قائلا بأن الثائر كبير، ويبدد الأوجاع بقوته، ويصبح العسير على يديه يسيرا، فهو يناضل من أجل هدفه ويشق أمله بين الصخور، فالأوجاع التي يواجهها لا تكسر ظهره، وإنما تزيده قوة وإصرارا .

والقدس رغم جراحها ما زالت صامدة، وما زالت تبعث برسائل السلام والمحبة إلى بقاع الأرض، فالقدس مهبط الرسالات السماوية الثلاث، خصها الله سبحانه لتكون منشر السلام والأمن والمحبة على هذه الأرض.

هي القدس على مرمى حجر من الأردن ولكن هيهات أن يكون الوصول إليها يسيرا فشاعرنا يتحسر على أمجاد العرب الضائعة وعلى بطولات قادتنا قديما وما يزيد من حرقة القلب كيف كانت الأمة الإسلامية والعربية قوية وكيف صارت ضعيفة وسطى عليها الأعداء طمعا في خيراتها وصارت الحمائم برأيه صقورا والمحتل رغم ذلك لا يزال يزور في تاريخ المدينة إلا أن الأرض تلفظهم وتأبى أن يكونوا فيها لأنها طاهرة لا تقبل الدنس فسنة الله أن يظهر العدل في أرضه فلن تفلح محاولات العدو في تهويد وتزوير وتحريف تاريخ أمة كاملا.

ويتغنى الشاعر بأمجاد معارك الماضي التي كان المدافعون عن حياض القدس عشاق لها فمعركة اللطرون وباب الواد أكبر شاهد على ذلك، ويبقى شاعرنا يقتله الشوق لرؤية القدس ولعناقها.

قصيدة "القدس" منشورة في ديوان "قسمات عربية" الصادر عن دار الينابيع بعمان عام 2011 صفحة (35).

***

وللشاعرة الباحثة هذه القصيدة التي تحاكي القدس بألمها وتاريخها وحضارتها وجمالها وحزنها وفرحها نشرت بعدة مواقع الكترونية في العام 2012.

القــدسُ لؤلــؤةٌ مــدى الأيــامِ نبــعُ القداســةِ والبهــاءِ الــسامي

إن الحيـــاة جميلـــةٌ في حـــضنها رغـــم القـــذى والجـــرحِ والآلامِ

مهـــدُ المحبـــةِ والتكـــرُّم والنـــدى والمجـــد والإيـــمانِ والإســـلامِ

مهـــما ادْلهـــمّ الليـــل في أفـــق الـــدنا فهـــي المنـــارةُ فـــوقَ كـــلِّ ظـــلامِ

ســـتعيش رافعـــةً يـــديها حُـــرةً بالنـــصرِ تحمـــلُ أطهـــر الأعـــلامِ

ســـتظل نبراســـاً لكـــل مناضـــلٍ وتظـــل منهاجـــاً لكـــل هُمـــامِ

وهـــي القـــصيدة في الزمـــان فريـــدةٌ فـــوق الثنـــاءِ وفـــوق كـــلِّ كـــلامِ

القـــدس موســـيقى عـــلى أســـماعنا وقلوبنـــا ســـحريّةُ الأنغـــامِ

الحُـــسْنُ في أســـوارها متـــدفقٌ نهـــراً مـــن الإبـــداع والإلهـــامِ

حـــقٌّ عـــليَّ بـــأنْ أحـــب ترابهـــا ويكـــونُ فيهـــا مَفخـــري بمقـــامِ

حـــقٌّ عـــليّ العـــشقُ في أركانهـــا وصُـــداح قلبـــي عنـــدها بغرامـــي

ولأنهـــا ابتـــسمتْ بـــرغم جراحهـــا فلْأحـــيَ فيهـــا بـــالفم بالبـــسّامِ

وإذا حلمـــــتُ فإنهـــــا حُريّـــــةٌ في أرضـــها قـــد عانقـــتْ أحلامـــي

شـمسٌ متى طلعتْ تحركُ مهجتي وتزيـــل عنـــي وحـــشة الإظـــلامِ

وأرى بهـــا شـــعر الحماســـة مـــوئلي والحـــب فيهـــا مـــشربي وطعـــامي

يـا إخـوتي لا تحـسبوا الفجـرَ الـذي أشْــدو لــه ضَرْبــاً مــن الأوهــامِ

وتنَظّــروا جنّــاتِ زهْــرٍ في الربــى تختــال ناعمــةً بــماء غمامــي

وغــداً يعــودُ الحــق بعــد غيابــه عــوداً وتلــك مــشيئة العــلّامِ

وغــداً نطــالعُ والزمــان مُطــالعٌ فــرحَ الأســيرِ وبهجــةَ الأيتــامِ

ونــرى حــدائقَ في الوجــوهِ نديَّــةً قــدْ طُهّــرَتْ مــن كــل حــزنٍ دامِ

إن لم تكــنْ أرواحُنــا طهّاحــةً عاشــتْ رهينــةَ أســوء الأســقامِ

تصف الشاعرة القدس وتشبهها باللؤلؤة الثمينة الساطعة بلمعانها، لمعانها يبرق محبة وسلاما، رافعة يد الود والمحبة عالية، مهما طال الليل عليها لا بد وأن يزول، ستظل ملهما للشعراء يتغنون بها، تبعث في قلوب المناضلين روح الحياة، فالقدس رمز الأمان والسلام ورمز الجمال والحضارة، نبع الحماسة للجهاد تحت قبابها، فالمجاهد عندما يحدق بها، ينتفض قلبه شوقا للشهادة.

***

أما الشاعر الأردني محمد سمحان وفي لاميته أنصف القدس حين كتب قصيدته "لاميّة القدس"... لاميّة القهر.

شِدّي الرِّحَالَ إلى الأقصَى على عَجَلِ قَبْلَ البُكاءِ بِلا جَدْوَى على الطللِ

لا يُوقِفُ الهَدْمَ لا لَوْمٌ وَلا عَذَلٌ وَلا الرُّكُونُ إلى الأعْذارِ والْعِللِ

يَا أُمَّةَ الْعُرْبِ جَلَّ الْخَطْبُ فانْتَفِضِي فقدْ غَدا الْخُلْفُ أمْراً غَيْرَ مُحْتَمَلِ

كَفَى هَوَاناً فقدْ ضَجَّ الهَوَانُ بِنا وَحَالنَا فِيهِ أمْسَى مَضْرَبَ الْمَثَلِ

تَعْدو عَلَيْنا حُثالاتُ الشُّعوبِ فلا نُحِسُّ بالعَارِ أوْ بِالْعَيْبِ والْخَجَلِ

وَفَوْقَ هذا وذا نَرْضى بِذِلتنا وَنُسْلِمُ الْحُكْمَ لِلأنْذالِ والسَّفَلِ

هُمْ مزَّقُونا على أهْوائِهِمْ مِزَقاً وَقَسَّمُونا كَما شَاؤُوا إلى دُوَلِ

وَأسْلمُونا إلى أعْدائِنا لقَمَاً وسَيَّجوا حُكْمَهُمْ بِالْجَوْرِ والدَّجَلِ

لا هَمَّ يَشْغَلهُمْ إلَّا تَرَبُّعُهمْ على الْكَرَاسِي ولا يَرْضَوْنَ مِنْ بَدَلِ

وَحَوْلَهُمْ زُمَرٌ بَاعَتْ ضَمَائِرَها مِنَ الزَّنادِيقِ و(الزُّعْرَانِ) والْهَمَلِ

أعْطَوْا لِإبْلِيسَ ما شَاءَتْ غِوَايَتَهُ لِيُصْبِحُوا مِثْلَهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ

وَحَكَّمُوا الْغَرْبَ فِيهِمْ كَيْ يُحَكِّمَهُمْ فِينا امْتِثَالاً كَحُكْمِ الجَّحْشِ فِي الْإِبِلِ

فَمِنْ(جَاكَرْتَا لِنُوقِ الشَّطِّ) تَحْسَبُنا كَمَنْ أصِيبَ بِفَقْدِ الْعَقْلِ وَالشَّلَلِ

نَحْنُ الرَّعَايَا وَهُمْ يَرْعُوْنَ أمَّتَنا كَمَا يَشَاؤُونَ رَعْيَ الذِّئبِ لِلْحَمَلِ

أعْطَوْا لِصَهْيُونَ مَا شَاءَتْ لِتُبْقِيَهُمْ يَحْمُونَ دَوْلَتَها مِنْ سَاعَةِ الأجَلِ

وَالْقُدْسُ وَالْمَسْجِدُ الأقْصَى بِأسْرِهِمَا يَسْتَنْجِدَانِ وَمَا فِي الْقَوْمِ مِنْ بَطَلِ

آمَنْـتُ بِـاللهِ رَبًّـاً لا شَرِيـكَ لَـهُ وَسَـيِّدِ الْخَلْـقِ وَالْقُـرْآنِ وَالرُّسُـلِ

وَاللهِ يا قُدْسُ مَا أَشْرَقْتِ فِي خَلدِي إِلَّا وَدَمْعِـيَ مِثْـلَ الْعَـارِضِ الْهَطِـلِ

قَالُوا أَلَمْ تَخْشَ مِمَّا قُلْتَ؟؟ قُلْتُ لَهُمْ (أَنَـا الْغَرِيـقُ فَـمَا خَـوْفِي مِـنَ الْبَلَـلِ)

فالشاعر من بداية القصيدة بدأ باستنهاض الهمة لنصرة القدس فيبرق رسائله إلى الأمة العربية، فهو يدعو إلى شد الرحال إلى القدس من أجل الجهاد، ويدعو إلى عدم الخنوع والاكتفاء بالبكاء، فوضع القدس لا يحتمل التأخير أكثر، فيخاطب العرب قائلا، كفاكم ذل وهوان، فأصبح العرب مضرب مثلا في الذل، هذا هو حالنا بعد أن سيطر المستعمر على كل شيء فينا، وغلبتنا الفرقة، وأصبحنا دويلات صغيرة لا تتفق، فيدعو الشاعر أبناء العروبة إلى الإتحاد والتوحد في صف واحد لمجابهة المحتل، وبغير وحدتنا وديننا لا عز لنا ولا قوة ولا منعة، فالشاعر يقول هذه العبارات، التي تعتبرها الحكومات العربية فكرا انقلابيا دون خوف، لأنه يخشى أن يعاقب، وضرب لنا مثلا، من يركب البحر لا يخشى من أن يبتل بالماء.

***

وللشاعرة العربية الشيخة هند صقر القاسمي هذه القصيدة بعنوان "اليوبيل الدامي":

يـا لقـومي هـل تُـراكُمْ سُـعداءْ ولهيـبُ الـذُّلِ يُـصلي البُـسلاءْ

نصفُ قرنٍ قد مضى والصمتُ داءٌ ينخـرُ العظـمَ ولا يلقـى الـدواءْ

نـصفُ قـرنٍ أرَّقـتْ أجفانَنَـا صرخـةُ الحـقِ تُنـادي النُجبـاءْ

نـصفُ قـرنٍ يـا (فلـسطينُ) مـضى لم يلـبِّ القـومُ أصـداءَ النـداءْ

إننـا قـومٌ غـدتْ أنفـسُنا تعـشقُ الوعـدَ ويُـشجيها الثنـاءْ

كمْ؛وكـمْ قـد شـنَّفتْ آذانَنـا: (في غـدٍ سـلمٌ وأمـنٌ ورخـاءْ)

فتناسـينا حقوقـاً سُـلبتْ ودمـاً حُـراً أضَـعْناهُ هبـاءْ

وتناسـينا يتـامى شُرِّدوا باسمِ (الاستيطانِ) باتوا في العراءْ

وثكـالى مزَّقَـتْ أحـشاءَهنْ (مديـةُ) الغـدرِ وجـورُ الحلفـاءْ

كـم شـهيدٍ عـشقَ المـوتَ وكـمْ بطـلٍ ضـحَّى وإنْ عـزَّ الفـداءْ

هـم فُـرادى قـد مـضَوا يـصحبُهُمْ عنفـوانُ المجـدِ والعـزمُ المَـضاءْ

مـا انثنـى طفـلٌ ولا أرملـةٌ عـن جهـادٍ يمـلأُ الـدُّنيا حيـاءْ

أمطـروهم حجَـراً مُـشتعِلاً زرعـوا الرعـبَ بقلـبِ الـدخلاءْ

هللـوا أنْ في غـدٍ موعـدَنا نفتـدي (القـدسَ) بـروحٍ ودمـاءْ

سـوف يـأتي (خالـدٌ) يجمعُنـا يفلـقُ الهـامَ بـسيفِ العظـماءْ

أو سـيأتي (طـارقٌ) في جحفـلٍ أو (صـلاحُ الـدينِ) عنـوانُ الإبـاءْ

فلنحقـق في غـدٍ غاياتِنـا بـصمودٍ نتحـدَّى الأقويـاءْ

تحـــت راي الحـــقِ نمـــضي قُـــدماً نـــسحقُ الظلـــمَ ونُقـــصي الغربـــاءْ

فلنُحـــررْ أرضـــنا مـــن غلِّهـــا ولنـردَّ (القـدس) (قـدس) الأنبيـاءْ

أنـــتم الجـــذوةُ في ســـاحِ الـــوغَى أشـــعلوا الحـــربَ بعـــزمِ الـــشُّرفاءْ

مزَقَـــتْ صـــيحاتُكم أعـــداءَكم ورويـــتُمْ أرضَـــكم أغـــلى دمـــاءْ

في ركـــابِ المجـــدِ فامـــضوا قُـــدماً حققـــوا العهـــدَ وصـــونوا الكبريـــاءْ

وأعيـــدوا يـــومَ (حطـــينَ) كـــما قـــد عهـــدناكُمْ عُتـــاةً أقويـــاءْ

أنتمـــو جنـــدُ (صـــلاحٍ) فاثـــأروا لـــدمِ الإســـلامِ في عـــصرِ الغُثـــاءْ

حـــرروا الـــسيفَ مـــن الغمـــدِ فـــما صـــدأَ الـــسيفُ ولا عـــزَّ الرجـــاءْ

واعلنوهـــــا ثـــــورةً عارمـــــةً حـــربَ شـــعواءَ لهـــا النـــصرُ شـــفاءْ

بـــــاركَ اللهُ خُطـــــاكم إنكـــــمْ زُمـــرٌ قـــد شـــيدتْ أَعـــلى بنـــاءْ

تذهب الشاعرة في حوار مع ذاتها تسأل تارة نفسها وتارة أخرى تحاول أن تصرخ لتعبر عن غضبها ورفضها للذل فتقول هل يا ترى نحن بما يحل بفلسطين الحبيبة سعداء والذل قد وصل إلى كل البلدان وصار ينخر بكل الأجساد فنصف قرن على احتلال الأرض المقدسة ورغم هذه المدة الطويلة إلى أنه لم يتحرك أحد لينجد فلسطين فدماء الشهداء ما زالت تستصرخ الأحرار ولا هناك من مجيب وكأن الأمة العربية مصرة على عدم سماع النداء الحر الفلسطيني، وهنا أرى بأن الشاعرة تيأس من نداء العرب فتوجه بخطابها للأم

الفلسطينية الصامدة وللطفل صاحب المقلاع والحجر وللمقاوم في كل الأرض أنكم أنتم الأقوياء تقاتلون وحدكم وتدعوهم لمزيد من المقاومة والإصرار على الحياة، وتبشرهم بأن النصر قادم، فغداً سيأتي قادة عظام كصلاح الدين وطارق بن زياد، سيأتي من يحرر الأرض المحتلة من دنس بني صهيون. وهنا الشاعرة ثائرة حاملة للوجع الفلسطيني القاتل، وهي تقاتل بحرفها مع فلسطين.

آيات الاخرس الشهيدة التي قامت بتفجير نفسها في القدس الغربية 20/ فبراير / 1986

كما قلنا بأن الشاعرة تناضل مع فلسطين بقوة حرفها فها هي تدوس على أنف المحتل بجبروت حرفها وتدافع عن أرض الإسراء والمعراج تتساءل مرة وتتعجب ألفا كيف لبني صهيون أن يدوسوا قداسة كنيسة المهد في بيت لحم وهنا إشارة إلى حصار كنيسة المهد واجتياح الضفة الغربية عام 2002م وتنذر الأعداء بأن مدينة جنين رغم ضعفها إلى أنها ستكون لكم محرقة يا أيها الأعداء الجبناء فقذائفكم النارية القاتلة لن تفلح مع شعب يقاتل بقوة إرادته وعزيمته فنابلس كما يقولون عنها جبل النار لن تهزم وفلسطين بأسرها بعد اليوم لن ولن تهزم فوطن فيه مناضلة كالشهيدة آيات الأخرس كيف له أن يموت وشعب منه سيخرج صلاح الدين ليعيد أمجاد الأمة كيف له أن يموت وتدعو أبناء فلسطين إلى الوحدة والتلاحم وأن يكونوا يدا واحدة في وجه المحتل الباغي.

خلاصة

– تحظى مدينة القدس بمكانة أدبية منذ القدم في تاريخ الأدب العربي فهي أيقونة مقدسة وذات مكانة دينية رفيعة فلا غرابة أن تحظى بهذه المكانة فقد تناولها الشعراء في العصر الإسلامي إلى يومنا هذا، ولكن ومع غياب الخطة الإستراتيجية العربية الأدبية للثقافة العربية أدى إلى تهميش ولو بسيط لمكانة القدس أدبيا، وكانت القصائد أعلاه قد أوضحت فرق وعمق الحروف التفصيلية لمدينة القدس التي تحدثت عن ألمها/ حزنها/ فرحها/ تاريخها/ تلك التفاصيل الصغيرة/ التي رسمها الشاعر العربي بأحاسيسه دون التكلف أو ذكر تاريخها ومكانتها الدينية بشكل مجرد، وهذا ما لمسناه من شعرائنا العرب الذين عاشوا ظروف الفلسطيني ومكانة مدينته بقدسيتها التاريخية والحضارية والإنسانية ما زاد من رقي الحرف ليصبح في صف واحد في محاربة كيان فرض عليها واقع وجديد على الشعب العربي والفلسطيني الذي تعود قدسية جذع المدينة على مر العصور.

– تتوق النفس والروح لرؤية مسرى الرسول ومعراج النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، فلا غرابة أن تكون قصائد الشعراء كل حروفها تفيض شوقا وحبا لهذه المدينة المقدسة، فهي كذلك مهد الأديان السماوية الثلاثة فكما نلاحظ أن شعراء فلسطين والعرب متفقون على رواية جرح القدس وألمها، لكن الشاعر العربي تراه يكتب حزن المدينة كما يراه من بعيد؛ ربما من خلال شاشات التلفاز أو عن رواية شخص ما، علماً بأن الشاعر الفلسطيني هو أقرب للوجع وأقرب للحزن والهم الفلسطيني؛ فهو يعيش الواقع وظروف الاحتلال ويلمسها عن قرب وهذا ما لمسناه بحروف الشعراء هنا.

– ورغم أن الشاعر الفلسطيني يكتب عن جراح دولته المغتصبة التي يعتبر قلبها النابض قدس الأقداس، إلا أنه لم ينس يوما جراح المدن الأخرى كبيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وعمان وفاس وتونس والجزائر الخ مثلا، والعكس صحيح؛ فإن الشاعر العربي يكتب عن بلده ولم ينس جراح القدس كمن يكتب عن بغداد ويزيد الجرح بكتابته عن مدينته الثانية القدس، فصارت القدس في وجدان الشاعر وفي خاطره وتعيش بين حروفه، ولكن الذي يكتوي بالنار ليس كمن يتحدث عنها، فالفلسطيني أقرب بحرفه لهذا الوجع، ونرى أيضا أن كافة الشعراء يرفضون المفاوضات مع المحتل ويذهب برأيه أن الحديث مع العدو مضيعة للوقت.

– وفي إشارة مشتركة في قصائدهم إلى محاولات التهويد والتزوير والتحريف التي يمارسها العدو ضد فلسطين وتاريخها وضد المدينة المقدسة فرغم أن الشعراء يرون بأن المدينة تمر في مخاض عسير إلا أن كلا منهم له نظرة تفاؤلية بقرب النصر وقدوم فجر جديد لا محالة.

– إن أدب المقاومة أدب له تاريخ طويل بعمر الجهاد الفلسطيني والذي أوجدته الظروف ونيران الحروب في أرض أولى القبلتين، والبعض أرخ هذا الأدب إلى عام 1948 إلا أنه يعود إلى أقدم من ذلك بكثير. حيث ولد من رحم الثورة في عهد الانتداب البريطاني عندما قامت ثورة البراق في العام 1929وما تلاها من أحداث عظام في العام 1930. عندما غادر فلسطين ثلاثة شهداء (فؤاد حجازي، محمد جمجوم، وعطا الزير) وكانت نتاج هذا الحدث القصيدة الغنائية بداية هذا الأدب.

كانوا ثلاث رجال يتسابقوا ع الموت

أقدامهم عليت فوق رقبة الجلاد

وصاروا مثل يا خال

طول وعرض بلاد

من سجن عكا طلعت جنازة

محمد جمجوم وفؤاد حجازي

– من جهة أخرى تناول العرب موضوع القدس في قصائدهم وتطور تناولها مع تطور الأحداث حيث تنوع التناول الشعري للمدينة مع تنوع الدوافع والتي ظهرت في النهج واللغة والأسلوب الذي يعبر عن القدس وقضيتها.

ولا بد من الكشف عن الجزء الهام الذي خرجنا به في دراستنا في المساهمة في سبر العلاقة التاريخية بين هذه البلاد وبين القدس والأقصى حيث القدسية الروحية قبل المقاومة وبعدها وما تحمله من دلالات قومية وأيدولوجية.

obeikandl.com